

# أوتوجراف

د. أماني قنديل





**أوتوجراف**  
**د. أماني قنديل**  
٢٠١٧

الإخراج الفني  
محمد أمين

للتواصل : [amani-kandil@hotmail.com](mailto:amani-kandil@hotmail.com)

## الموضوعات

- 5 ..... صفحات أوتوجراف
- 7 ..... خلطة أمني
- 9 ..... تسلق الجبال الشاهقة
- 11 ..... هل الحب قرار؟
- 13 ..... الامتحانات.. ونكسة ١٩٦٧
- 15 ..... أحلام قد تكون أوهاماً
- 17 ..... معنى أن تصنع طريقك
- 19 ..... حين يختلط الحزن مع الفرح
- 21 ..... صفحة الفرحه والانطلاق
- 23 ..... فارس العمل الأهلي سمو الأمير طلال بن عبد العزيز
- 26 ..... التمرد مفيد أحياناً
- 28 ..... الزواج .. ولكن بشكل خاص جداً
- 30 ..... أم .. ولا تنجب
- 32 ..... هل للسياسة موقع في حياتي؟
- 34 ..... هل يحب الرجل المرأة القوية؟
- 46 ..... الرئيس الحريري.. وأنا
- 38 ..... نيران صديقة جداً
- 40 ..... زجاجة المياه.. والمحافظ والسيدة سوزان مبارك
- 42 ..... البيت الكبير
- 44 ..... سفر يوم إفلاس دولة
- 46 ..... هؤلاء جميعاً.. أبنائي

49	..... تسعة جنيتها
51	..... إن فاتك الميري اتمرغ في ترابه
53	..... بيروت.. رايح جاي
55	..... معنى أن تكون جزءاً من أحداث سبتمبر ٢٠٠١
58	..... نيروبي ١٩٨٥.. وصفحة جديدة
61	..... التحليق مع النجوم
63	..... العراق.. صدام وأنا ونحن
66	..... القرار الحاسم في اللحظة المناسبة
69	..... ولا تسوى دموع.. وسفر ورجوع
71	..... أن تشعر بالاستغناء
72	..... في دمشق.. مع بشار الأسد.. وصباح فخري
75	..... ليبييا القذافي.. وأنا
77	..... حين تتجمد الأنهار
79	..... فسحة ٢٥ يناير ٢٠١١
81	..... ما بين الصداقة والحب
83	..... «لا ندم»
85	..... فيها حاجة حلوة
87	..... عقدة خط الاستواء
89	..... هل المشاعر يمكن أن تكون زكية؟
92	..... لا تقترب واحتفظ بمساحة
94	..... «التوازن» واستعادة التوازن
96	..... سهرة نسائية في إحدى دول الخليج العربي
98	..... إعلان سقوط مبدأ الأمانة العلمية
100	..... «زيارة إلى البرازيل.. وصدمة أطفال الشوارع
103	..... تعلم كيف تنسى.. وتعلم كيف تمحو

## «صفحات أوتوجراف»

منذ عامين تقريباً وأنا أستعد للانتقال إلى بيت آخر، كانت أصعب مهمة أمامي استغرقت فترة طويلة، هي مراجعة أوراقى وكتبى، لتنتقيتها من «زحام شديد» تراكم، وأن الأوان للاحتفاظ بما هو مطلوب ومفيد.. وجدت «ثروة شخصية» بالنسبة لى، أوراق امتحانات المرحلة الثانوية، وشهادات لدبومات حصلت عليها في مراحل مختلفة، ونسيتها (منها دبلومة حقوق الإنسان من معهد ستراسبورج بفرنسا، ودبلومة إخراج برامج إذاعية من هولندا، ودبلوم معهد البحوث والدراسات العربية، وشهادة تميز في احتفالات عيد العلم بعد حصولي على الثانوية العامة.. وغيرها الكثير).

كنت أجاهد لكي أتعلم، وأكتسب خبرات جديدة، وأغلق الملف وأنتقل إلى آخر، من دون إعلان ومن دون تفاخر، وهو ما أحمد الله عليه كثيراً.. إلا أن أهم ما وقع في يدي، هو أوتوجراف رمادي صغير يعود إلى عام تخرجي في الجامعة (١٩٧٠)، كتب فيه الأصدقاء والزلاء، أمنياتهم لى أو ذكرياتنا معاً.. جلست في مكتبى أتصفحه بعد أكثر من ٤٠ عاماً، وجدت زملاء لم أعد أعرف عنهم شيئاً والبعض منهم لا أتذكر ملامحه - رغم حميمية الأسلوب - وجدت من توفاه الله (من بينهم اثنان في حرب أكتوبر)، ووجدت كلمات غاية في العذوبة والحب لأصدقاء وزملاء، يشكلون الآن مجموعة مهمة من «النخبة» ومازالوا أصدقاء لى حتى اللحظة الحالية.. منهم د. عبد المنعم سعيد، ود. عبد المنعم المشاط، ود.

نازلي معوض، ود. مجدي حماد، ود. زاهي المغربي (أحد أعلام علم السياسة في ليبيا)، ورجل الأعمال عمر مهني، ود. حسين همام (الدبلوماسي المحترم من عدن).. وآخرون كثيرون.. أكثر ما لفت اهتمامي في صفحات الأوتوجراف، تكرار الحديث عني باعتباري إنسانة بسيطة، منطلقة، صريحة، يجتمع حولي الزملاء. لفت انتباهي أيضاً، أن أكثر من نصف الزملاء والأصدقاء تمنوا لي الزواج والإنجاب - وهما أركان السعادة من وجهة نظرهم- بينما الباقون، خاصة من ذكرت أسماءهم، كانت تمنياتهم لي بالسعادة والنجاح، دون وضع الأمانى في قالب الزواج والإنجاب، أي دون توقعات أو تمنيّط.. إذا قرأت تجد منهم من يعكس فكراً ليبرالياً يؤمن بحرية المرأة في الاختيار، وهم كذلك حتى اللحظة الحالية.. ثم تجد آخرين يعكسون التفكير التقليدي لأدوار المرأة، وبكل صدق يتمنون لي الزواج وإنجاب الأطفال فهذا هو طريق السعادة، من وجهة نظرهم.

**إن صفحات الأوتوجراف، الذي يعود إلى أكثر من ٤٠ عاماً مضت، قد نقلني إلى النقطة الزمنية الحالية، ودفعني لأسأل نفسي ماذا حققت؟ وكيف كانت حياتي؟** هل كانت أمنيات بعض الأصدقاء لي بالزواج والأبناء هي طريق للسعادة التي تمنونها لي؟ أم أن القلة من الزملاء والأصدقاء الذين تمنوا لي النجاح المهني، كانوا الأكثر فهماً لشخصيتي ومساري في الحياة؟

في الحقيقة وفي هذه اللحظة أدركت أنني كنت سعيدة والحمد لله في حياتي، «كنت نفسي»، سارت حياتي باختياري، وليس من إملاءات أو تحت ضغوط اجتماعية، شعرت بالرضاء عن رحلة عمري.. وقررت أن أكتب صفحات من حياتي، أو «أوتوجراف» حياتي.. لا أدعي أنني أكتب سيرة ذاتية، ولكنني أسجل خبرات بعضها مر وبعضها حلو.. وجميعها صنعت «خلطة أمانى».

## «خطة أماني»

كل منا، مهما طال العمر به، لا ينسى أياماً - بل لحظات - صنعت تاريخه، وأعادت صياغة شخصيته، بل ورسمت ملامح طريقه، وغيّرت آماله وأحلامه، وكشفت «عن زيف» البعض منها، وصنعت واقعه.. أنا من بين هؤلاء البشر، الذين يتذكرون بكل دقة، لحظات مرت بهم - بعضها حلو وبعضها مر - لكنها دفعنتني دائماً إلى الأمام، وجعلتني دائماً البحث عن ذاتي، ودائمة البحث عن «مدينتي الفاضلة»، كلما مر يوم واحد من حياتي، أشعر أنني أقترب من قمة الحلم.. حتى وإن ظهر منه القدر اليسير.. «مدينتي» التي صنعتها هي الحب والعتاء.. هي العمل والكفاح.. هي النجاح في تحقيق الآمال والأحلام.. هي محاولة التجاوز عن الصغائر، والانشغال بكل ما هو «كبير» وإيجابي.. مدينتي التي صنعتها، تحول فيها ما هو قاسٍ ومؤلم إلى نجاح وفرحة.. إرادة قوية تتغلب على الظروف، وبحث عن كل ما هو إيجابي أتمسك به، وأخشى أن يهرب من قبضة «يدي».. مدينتي خليط من المشاعر الرومانسية، ودرجة عالية من الواقعية للتعامل مع الظروف الصعبة ومع البشر جميعاً.. لا أجد أي تناقض بين الاثنين، وأطلق عليها «خطة أماني».. هكذا أنا، وهكذا عشت حياتي، وهكذا ارتقيت في مهنتي وأنجزت الكثير، وهكذا تعاملت مع البشر دوماً، وهكذا أحببت واستمتعت باكتشاف مشاعري.. باحثة دوماً في العلم الذي تخصصت فيه، وباحثة عن الحب والمثاعر.. «اللياقة النفسية المتجددة في كل مرحلة من حياتي»، كما وصفني أحد أساتذتي.

لا أتعرض لانهييار إذا أخفقت، وأسعى إلى الوقوف سريعاً إذا سقطت،

وأجاهد مع نفسي إذا اكتشفت سلبيةاتي أحاول أن أغير من نفسي، وأحاول أن أكون أكثر تسامحاً مع البشر.. أتفهم ظروفهم وأتفهم دوافعهم.. الحياة بمن فيها وما فيها، ليست الأبيض والأسود، أو أما/ أو.. بل على العكس المساحات الرمادية كثيرة بين الاثنين وعلينا أن ندركها، وبالطبع لقد تغيرت كثيراً على مدى سنوات العمر، وتفهمت البشر والحياة.. نعم أعترف أنني تعلمت، وتغيرت ملامح كثيرة في بنائي الشخصي، لكن «الخط الوحيد» الذي لم يتغير عندي هو الحب والمشاعر الحلوة، ومدينتي الفاضلة التي رسمتها المبادئ.. الواقعية ورومانسية الأحلام، صنعا معاً «خلطة أمانى».





## «تسلق الجبال الشاهقة»

حين أنظر إلى الوراء، أقف أمام إحدى السلبيات - من وجهة نظري الشخصية - التي اتسم بها تكويني النفسي وسلوكي، وهي «ولعي» بالمنافسة لاحتلال المركز الأول، خاصة في الصفوف الدراسية للمرحلة الثانوية، قد يرى البعض أن تشجيع الأبناء على الاستذكار والتفوق، هو بالتأكيد أمر إيجابي.. أنا الآن أقول إن التحفيز على التفوق والتشجيع مهم، ولكن «إطلاق المنافسة» على النحو الذي حدث معي - ولا أدري هل كان ذلك ناتجاً عن التنشئة في الأسرة أم أنه جزء من تكويني الشخصي - قد أفسد استمتاعي بطفولتي ثم شبابي.. كنت أشعر دائماً أنني في سباق للجري، ألهث دائماً، ودون استراحة.. أعتقد أن تكويني الشخصي هو المسؤل، إخوتي جميعهم متفوقون، ولكنني وحدي كنت أخوض هذا السباق. حين كنت في السنة الثانية في المرحلة الثانوية، حصلت في امتحان مادة الجغرافيا على درجة محدودة أدت إلي أن أكون الثالثة - وليست الأولى على الفصل - بكيث لعدة أيام بكاءً مريراً، كرهت نفسي، وكرهت المدرسة..

نصحتني والدتي - رحمة الله عليها - لمقابلة الأستاذ مورييس جاد مكاري، لمعرفة أخطائي.. جلست معه شرح لي أخطائي وفسر لي بشكل لا أنساه، لماذا حصلت على هذه الدرجة المتدنية.. أخذت في اعتباري كل ما قاله، لأحصل في الامتحان التالي في الجغرافيا على الدرجة النهائية.. وكان الأهم ما سطره أستاذي على ورقة الامتحان بالقلم الأحمر، والذي ما زلت أحتفظ به حتى هذه اللحظة.. فقد كتب يقول:

«هناك من يهوي تسلق الجبال الشاهقة، فهل انت منهم؟»



لقد قرأت هذا التساؤل عدة مرات، وكان عمري لا يزيد على الخامسة عشرة، شعرت بسعادة غامرة، وفهمت منه أنني تفوقت بشكل أذهله، وأنه بهذه الكلمات التي سطرها لي علي ورقة الإجابة، يشجعني على قبول التحدي دوماً.. ولن أنسى هذا التساؤل المحفز المشجع من جانب أستاذ الجغرافيا، وأقول حتى هذه اللحظة «نعم أنا من يهوى تسلق الجبال الشاهقة».



## «هل الحب قرار؟»

أحب الحب، لا أتصور أن الحياة يمكن أن تستمر، ولا حتى تبدأ بدون الحب.. المشاعر والعواطف «والكلمة الحلوة» وكرم العطاء، وسعادة من يعطي - وهي أكثر ممن يتلقى - لا يمكن وصفها.. المشاعر هي الطاقة المحركة للإنسان، وما أجمل أن تكتشف دوماً، «مساحات جديدة» من مشاعر الحب، وهي تتلون بألوان مختلفة مع الزمن.

هكذا كنت، وهكذا أنا، ولا أنسى ضحكة أمي حين تقول لي «ومين فينا الأم ومين الابنة؟» حب ومشاعر جميلة للكل، وبلا تفرقة أختي وأخي وأولادهما، وهم أولادي، ومعرفي وأصدقائي وزملائي في العمل، والجيران، والبواب وأولاده... وكم من هؤلاء أطلق اسم «أماني» على أبنائه، وكم أسعدني ذلك.. الحب ليس قراراً عندي، ومن هنا ليس وراءه مصالح أو منافع، والحب قد يتوارى بعيداً، حين أكتشف أن الطرف الآخر لا يعرف معنى الحب ولا يقدر المشاعر.

لم أشعر بالحب تجاه شخص بعينه، وأنا طالبة بالجامعة، وحتى بعد تخرجي، ولعل ذلك من حسن الطالع، ولعله أيضاً كان تأجيلاً من القدر لأي ارتباط، وهو ما أتاح لي مساحة للعمل بجدية، واكتشاف ذاتي، والوصول إلى درجة عالية من النضج تسمح لي فيما بعد للارتباط بالشخص الذي أحببته.

بعد تخرجي في الجامعة بعدة سنوات، استدعت أمي طبيباً كنا على معرفة بعيدة به، ليوقع الكشف الطبي على بالمنزل، بعد تعرضي لآلام شديدة.. كنت أبكي من قسوة الألم.. ثم دخل حجرتي رجل على درجة عالية من الوسامة والأناقة..

شعرت «بخجل شديد» حين وقع الكشف الطبي، وحين قرر نقلي إلى مستشفى جاردن سيتي لإجراء عملية عاجلة.. كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي أشعر فيها بكل هذا الخجل أمام رجل.. وكانت هذه بداية قصة حب جميلة للغاية.. اكتملت بالزواج، ولكن بعد سنوات.. لماذا؟ هذه صفحة أخرى من حياتي.. نعود إليها فيما بعد.

إلا أنني أقول، إن الحب كله، بكل أنواعه ومستوياته هو ليس قراراً لا يتحدد بلحظة زمنية محددة، أو شخص بعينه.. ولكنه يرتبط بطبيعة الإنسان، تركيبته وشخصيته.. وكما قابلت من بشر على مدار حياتي، لا يعرفون كيف يحبون، أو ليست لديهم مشاعر إنسانية تفيض عليك، وعلى من حولهم بالحب.. قدرات تتفاوت على ما يبدو لي، كل يحب بطريقته.. هناك من يحب لتحقيق مصالحه، وهناك من يتوهم أنه يحب، وهناك من يحب «لأنه محب» بطبيعته، ويستمر يحب، ثم يتوقف حين يكتشف أنه «موهوم»، ويحب من لا يستحق هذا الحب.. وهناك أيضاً من لا يمتلك قدرة الحفاظ على هذا الحب.. إن الحب أشبه بشجرة صغيرة في البداية، إذا لم ترويهما الأطراف المحبة، فهي تموت وبسرعة.. القدرة على الحب هي التي تحدد مسار حياتك، وتضيغ علاقاتك بالجميع.

والقدرة على الحب والعتاء، هي مصدر قوة الشخصية، وليست علامات ضعف بأي حال من الأحوال، وهذه القدرة ترتبط في الأغلب بدرجة عالية من التسامح، والرغبة في الحياة بسلام.. وأعتقد أن هذا أحد أسباب سعادتي، وتصالحي مع نفسي ومع الزمان حين يقسو، يغلبك تيار الحب ويساندك من يحبونك.. تقف سريعاً، وتستمر في حب الحياة.

## «الامتحانات.. ونكسة ١٩٦٧»

هذه صفحة لا يمكن نسيانها، ولا يمكن إغلاقها، هذه هي الصفحة التي كسرت آمالنا، ونحن في مطلع الشباب، وهي صفحة دفعتنا إلى الواقع بكل آلامه وإحباطاته، وفي اعتقادي أنها «شككت» عقولنا وأفكارنا فيما بعد.

في الامتحانات النهائية في العام الأول، بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وكنا منشغلين تماماً بالإجابة عن الأسئلة سمعنا - ونحن في خيمة بالمدينة الجامعية - أصوات طائرات قريبة منا جداً، وأصوات انفجارات.. ولكن «قواعد الانضباط» في الامتحانات وغيرها، والتي تربينا عليها، جعلت الدهشة وعلامات الخوف فقط ترسم تعبيرات وجوهنا.. وبعد فترة قصيرة، جاء إلينا أستاذنا الفاضل د. عبد الملك عودة - رحمه الله - ليعلن إلغاء الامتحانات، وأن الحرب بين مصر وإسرائيل، مشتعلة.. دقائق وكنا خرجنا من «خيمة الامتحانات»، ونجتاز الطرقات ونستمع إلى أصوات الناس، وصوت المذياع، لإعلان انتصارات مصر المتتالية!! انقطعت وسائل المواصلات جميعها، وعدنا سيراً على الأقدام - أنا وأختي - إلى منزلنا بشارع قصر العيني.. أعمارنا الصغيرة، وتشبعنا بأقوال عبد الناصر «المأثورة» عن قوة مصر، و«سنقذف إسرائيل في البحر»، جعلتنا نكتسب قوة وسرعة في مشوارنا للعودة إلى منزلنا، وبداخلنا ثقة بأن مصر لن تهزم، و«فرحة» إننا نحارب الآن وسوف نتصر.

ساعة وراء ساعة، ونكتشف تدريجياً، الهزيمة التي لحقت بمصر، ونعلم ونرى بعض الضباط من جيراننا الذين عادوا من ميدان الحرب سيراً على الأقدام.. يصعب التعبير عن الشعور بالهزيمة، وما أحدثه في أهل مصر، خاصة شباب في

سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة على الأكثر، صدقنا القيادات السياسية والعسكرية.. ثم كان اكتشاف الأذوبة الكبرى والوهم الذي نعيش فيه.. بعد حوالي أسبوعين استكملنا الامتحانات، ولكن بغضب شديد، ونضج أكبر.. وتبدأ الجامعة مرحلة جديدة في العام الدراسي التالي ١٩٦٧ - ١٩٦٨، وتتغير معالم الشباب، وتتخبط الغالبية منا في مظاهرات الغضب والاحتجاج والصدام، والمطالبة بإجراء محاكمات للمسؤولين عن الهزيمة وليس «النكسة»، وهي التعبير المخفف عن الفشل والهزيمة.. في هذه اللحظة لم تعد مصر هي مصر التي نعرفها.



## «أحلام قد تكون أوهاماً»

حين التحقت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وكانت في ذلك الوقت - أواخر الستينيات - إحدى كليات القمة، كان يشغلنا، نحن مجموعة الأصدقاء والزملاء، الإجابة عن سؤال: ماذا سنعمل بعد التخرج؟ ما هو حلم كل منا؟ وفي قسم العلوم السياسية، كان عدد الطلاب والطالبات لا يزيد على الخمسين، وكان التفاعل بيننا قائماً على الحب والمودة.. لم يقتصر ذلك على مجتمع الطلبة وإنما امتدت علاقات الحب والاحترام إلى أساتذتنا العظماء والأفاضل.. مثال د. رفعت المحجوب، ود. حامد ربيع، ود. فتح الله الخطيب، ود. عبد الملك عودة (رحمه الله عليهم جميعاً).



كانت الغالبية منا يلتمون بالالتحاق بالسلك الدبلوماسي، أو الالتحاق بكادر هيئة التدريس، وقد أكون أنا الوحيدة التي تحلم بالعمل في الإعلام.. ولم لا، وقد كنت المسئولة عن الإذاعة المدرسية في المرحلتين الإعدادية والثانوية، وكانت -وما زالت- «الكلمات» تسحرني،

وأستمع إلى الإذاعة دائماً، حتى وأنا أستذكر دروسي.. تصاعد انبھاري بوسيلة الاتصال هذه، حين كنت أراقب وأنا في مقتبل العمر ابن العم الغالي حمدي قنديل، يتحدث بطلاقة وببساطة في التلفزيون، وهو ما أسهم في «صناعة حلمي»، ودفعني نحو العمل بالإعلام، لكي أسهم في تغيير الواقع.. هكذا تصورت.

وبالفعل تقدمت للعمل بالإذاعة، ونجحت في الامتحان، المهنة أحببتها، وسيطرت تماماً على هذه الأداة الحديدية التي تسمى الميكروفون.. صنعت أسماً

وسمعة طيبة والحمد لله.. وفي خلال ثماني سنوات - وهي مدة عملي بالإذاعة - حصلت على منحتين إحداهما للتدريب على الإخراج في هولندا (لمدة ٨ شهور)، والثانية منحة دراسية في معهد البحوث والدراسات العربية (لمدة عامين).

**ويوم وراء يوم، أدركت أن النجاح له أعداء كثيرون،** وأن هناك فساداً في كل ركن من أركان ماسبيرو، وأدركت أن هذا المناخ لا يلائمني، بل وبدأت أدافع عن نفسي وأستعير أحياناً آليات دفاعية من الآخرين، إلا أنني سألت نفسي سؤالاً واحداً فقط: هل هذا هو المكان الذي كنت أحلم به وأتصور أنني سأصعد درجات الترقى والتميز في إطاره؟ كانت الإجابة بلا تردد «طبعاً لا».. سجلت رسالة الماجستير في قسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، أمله أن تكون هذه هي الخطوة الأولى لتحريرني من «الحلم الزائف»، والسير في طريق جديد.

وبهدوء شديد ناقشت رسالة الماجستير، لأعود إلى الإذاعة في اليوم التالي، لأجد مكتبي في: «طرقات» الإذاعة التي أعمل بها، وأجد برامجي موزعة على زملاء لي.. ما السبب؟ أين خطأي؟ لتقول لي السيدة الفاضلة المدير «عايزة أوريكي انك ولا حاجة».. المهم أنني عدت إلى منزلي لمدة شهر أبكي من هذا الظلم، وأمي رحمها الله تخفف عني وتقول «هذا هو الدرس الأول في حياتك».. الويل لكل من يختلف ويتميز.. فجأة اتصلت بي رئيسة الإذاعة السيدة صفية المهندس.. قابلتها واستدعت مديرة المحطة وكل الزملاء في اجتماع عام للشهادة على ما حدث من وقائع ثم طلبت من المدير الاعتذار لي.. رفضت الاعتذار لأن السيدة المدير من عمر أمي.. وطلبت بدلاً من ذلك، من السيدة صفية المهندس قبول استقالتي.. وافقت بعد إلحاح مني وكتبت على ورقة الاستقالة «لو الإذاعة لديها ٣ من أماني قنديل لانصلح حال المبني كله».. **وكان ذلك نهاية العشق الزائف والحلم الوهمي، الذي سعيت إليه بكل قوة..** كان ذلك أيضاً الدرس الأول لي في حياتي وهو أن «بعض الأحلام قد تكون أوهاماً».



## «معنى أن تصنع طريقك»

بدأت لي لحظة وضوح الرؤية أمامي، بعد استقالتي من الإذاعة، من أجمل وأهم لحظات حياتي.. فقد أدركت خداع الميكروفون لمن يتحكم فيه، وأن الكلام والأحاديث الجميلة التي سجلتها وأذعتها، كانت في «الهواء» وعلى «الهواء»، وشعرت أن قوتي الحقيقية التي أفتش عنها، سوف تكون في البحث العلمي، وهو الذي سيحمل اسمي.. وعملت مدرس مساعد في المركز القومي للبحوث الاجتماعية، بعد حصولي على الماجستير (وقتها كنت مذيعاً بالإذاعة المصرية).

إن هذه خبرة جديدة ولحظة جديدة، أتعلم فيها، وأتفاعل مع أساتذة وزملاء وزميلات.. كانت البداية مشجعة، وهي اختياري لأطروحة الدكتوراه، سعدت جداً بحريتي في اختيار الموضوع، وفي اختيار الأستاذ المشرف على الرسالة، رجل جاد ومحترم ينتمي لجيل جديد من مدرسة العلوم السياسية، وكنت أنا صاحبة أول رسالة دكتوراه يشرف عليها.. كانت لي معايير لاختيار الموضوع، وأبرزها البحث عن موضوع جديد غير تقليدي، يفتح باباً واسعاً للعمل المستقبلي، ويسهم في بناء المدرسة المصرية للعلوم السياسية.. وتوافقت وأستاذي المشرف على الرسالة، الدكتور علي الدين هلال، حول موضوع صنع السياسة الاقتصادية في مصر (١٩٧٤ - ١٩٨١)، وبهذا الاختيار كانت رسالتي هي الأولى في قسم العلوم السياسية، التي تتناول بالتحليل والتقييم، السياسات العامة في مصر.. وفي مفاجأة جديدة حصلت علي منحة دراسية لمدة عام للسفر إلى باريس (معهد العلوم السياسية - جامعة السوربون) لجمع المادة العلمية.. واعتبرتها «منحة»

من الله سبحانه وتعالى، للتعليم والبحث والتجويد و«الاحتراف» وكان ذلك بداية طريق جديد، أحببته وافتخرت به.. وما زلت.

استمتعت حوالي العام في قراءة كل ما هو جديد عن السياسات العامة، وتوقفت كثيراً أمام فكرة تخصيص الموارد من خلال هذه السياسات، وأنها هي الاختيار الحقيقي لكفاءة الحكومات.. كنت أضع قدمي الأولى في الاقتصاد، والثانية في علم السياسة، وهو ما يستلزم إعادة تأهيل لي من جانب، والقراءة النقدية لأدبيات متنوعة من جانب آخر.. وعند الانتهاء من رسالتي العلمية، وكانت دراسة تطبيقية على سياسة الانفتاح الاقتصادي، نشرت مجلة الأهرام الاقتصادي أول كتاب لي، ثم كان كتابي الثاني عن السياسة التعليمية.. وهكذا صنعت طريقي بنفسني، لأصل إلى القوى المؤثرة في صناعة هذه السياسات، لأناقش جماعات المصالح والنقابات المهنية، وأصل إلى الجمعيات الأهلية، وهو ما حفر اسمي بالفعل.

إن اختيار طريقي الذي سأسير فيه، وأنا أعلم بشكل دقيق المعوقات التي ستواجهني، والمجهود الذي سأبذله للنجاح، كان من أهم اختياراتي، بل كان الأهم.. اخترت الانتقال من «الهواء» إلى القلم والكتابة والتوثيق، وكانت متعتي كبيرة في مساحات الحرية المتاحة لي، وفي صداقتي بالقلم الذي أكتب به.. وأتعجب لتصميمي - الذي لا مبرر له - حتى الآن على الاحتفاظ بصداقتي للقلم، رغم أنني الآن أصبحت أجيد استخدام وسائل التكنولوجيا الحديثة.. ولن أتخلى عن القلم فهو الذي نفذ اختياراتي، وصنع طريقي، وبطريقيتي.

## «حين يختلط الحزن مع الفرح»

أوشك العام الذي قضيته في منحة باريس للدراسة على الانتهاء (١٩٨٤)، والذي عملت فيه بكل اجتهاد وجدية، واستمتعت بالعمل، كما استمتعت بصحبة والدتي - رحمها الله - والتي شجعتني وساندتني، وقضيت معها أجمل أيام حياتي.. لم أتزوج حتى ذلك الوقت، وفضلت الدراسة وصحبة أمي الصديقة الجميلة، التي لم تدخر وسعاً لتربيته أنا وإخواتي، بعد وفاة الوالد الطبيب في سن مبكرة.. كنت من فرط سعادتي بها ومعها، لما يقترب من العام، أستشعر الخوف في داخلي.. أخاف عليها، وأخشى أن يصيبها أي مكروه، خاصة أنها تحسب الأيام والليالي الباقية لي، لانتهاء من رسالة الدكتوراه وهي تستعد للفرحة الكبيرة» كما كانت تقول لي.

ولكن الفرح قد يأتي مع الحزن أحياناً، وتختلط عليك الأمور لتصل إلى «مشاعر محايدة باردة».. **دق باي وأنا في باريس ما أطلق عليه «الحزن العظيم»**، آلام شديدة تعاني منها حبيبتي وصديقتي أمي، لنكتشف خلال أيام، أنها تعاني من السرطان، وفي مرحلة متأخرة.. وجاءت أختى وزوجها - الذي كان يعمل بالخارج - ليصطحبا والدتي، إلى القاهرة، على أن ألحق بهم خلال أيام.. لملت أوراقتي وكتبي وملابسي لأنفذ وعدي لها وإهداء رسالة الدكتوراه لها.. وفي الوطن، تابعت علاجها بكل صبر وإرادة، ومع طبيب شاء الله فيما بعد أن يكون الحب الكبير والحضن الدافئ.. تفرغت لخدمتها طوال النهار، ثم أسهر طوال الليل أراجع رسالتي وأستكمل الثغرات، وأتابع عملي حتى أنتهي تماماً منه، أملاً في أن ألحق أمي - وهي في الخمسين من عمرها - قبل مشيئة الله.. **كانت الحياة تسحب عنها كل يوم، وكانت تقول لي إن «روحها تأبى الصعود إلى الله»، طالما أنا**

بجانبيها، وتؤكد لي أنها لن تموت وأنا أمامها حياً ورغبة أن تكون معي، وإشفاقاً على وحدتي بعدها.. وفوجئت بها - وهي على هذه الحالة المتردية - تبغني أنها ستسافر إلى أخي الذي يعمل ويعيش في مكة المكرمة.. «هو الرجل وهو الذي سيواريني في التراب».. هكذا قالت ونفذ الله مشيئته، وهي مع أخي، ودفنت في أراضي مكة المكرمة.. وكانت المكالمات الهاتفية من أخي، ولم يحتاج الأمر منه أن يقول أي شيء.. يا الله شهرين وأنا وحدي في منزلنا أبحث عنها في كل شيء، في رائحة ملابسها وفي فراشها، وفي المطبخ، في كل مكان.. أرفض الخروج، أرفض باقي خطوات الإعداد لمناقشة الرسالة، أرفض الطعام، أرفض الأمل.. وانطفئ «بريق الدار»، مع انسحاب أمي الهادئ من الحياة.. ولكن بدأ الفرح يدق على بابي، رافضاً كل هذا الحزن.



## «صفحة الفرحة والانطلاق»

أستاذي وصديقي المشرف على رسالة الدكتوراه، د. على الدين هلال، وزوجته الفاضلة المحترمة، كان لهما محبة واحترام خاص لديّ، هاتفتني وطلب مقابلي بمكتبه بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، (أعتقد في ديسمبر ١٩٨٤).. وفاجأني بسؤال مباشر في اللحظة الأولى أين رسالتك؟ هل انتهيت من مراجعتها النهائية؟ قلت له إنني في حالة انهيار وحزن، وتركت الموضوع جانبا.. لقد توفيت أمي سندي في الحياة. كان رده قاسياً وقوياً وكافياً لإفاقتي من غيبوبة الحزن وأشكره على ذلك.. حدد لي موعداً آخر خلال أسبوعين، ومعني النسخة النهائية، لكي يراجعها ويوافق على إجراء الطباعة.. وعدت إلى منزلي وحيدة ومنكسرة، ثم بدأت أشعر بالقوة تتابني من جديد، ومع كل صفحة أتذكر الدكتور على الدين هلال، وهو يقول لي «هل هذا الوضع البائس الذي أنت فيه يسعد أمك؟ هل هذا هو الجزاء الذي تستحقه أمك بعد سنوات كفاحها؟».. انتهيت من المراجعة التامة للنسخة النهائية من رسالة الدكتوراه، وسلمتها لأستاذي في الموعد الذي حدده، وكانت سعادته لا توصف بهذا الإنجاز.

**وفي الخامس من فبراير عام ١٩٨٥، كان مواعي مع فرحة حقيقية، وانطلاقة جديدة، وأمل جديد، يفجر في نفسي الحماسة لكل شيء.. للحب والعمل والحياة.. لقد أحاطني زملائي وأصدقائي وعائلتي بالحب والتشجيع، حين جاء الجميع لتمتلي كل المقاعد في القاعة الكبرى لكلية الاقتصاد، وحين بدأت المناقشة من د. سعد الدين إبراهيم (وهو «الغول» الذي كنا نخافه كثيراً) كانت أولى كلماته: «يكفي شرفاً لجامعة القاهرة خمس رسائل جادة محترمة مثل رسالة أماني قنديل».. ويصفق الجميع فجأة بعد قوله هذا (وكانهم أيضاً كانوا يخشون**

هذا الغول).. وتنتهي المناقشة بعد حوالي أربع ساعات، لأحصل على دكتوراه الفلسفة في العلوم السياسية، بدرجة ممتاز.. هذا كان يوم ميلاد جديداً، تنطلق فيه «زغاريد» للمرة الأولى في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وينطلق التصفيق من الجميع من كل جانب، ويلتف حولي المهنئون.. هل كنت أستحق كل هذا الحب، وكل هذه المساندة؟ وشعرت بسعادة غامرة وأنا أتذكر أنني وفيت بوعدني لأمي - رحمها الله - وحققت أمنية غالية لها.. ووصلت إليها كلمات الإهداء في الصفحة الأولى من الرسالة:

**«إلى أمي رحمها الله وإلى سنوات كفاحها الطويلة**

**لعلي حققت أمنيتها ووفيت بالعهد»**



## الأمير طلال بن عبد العزيز «فارس العمل الأهلي العربي»



حين كنت أعمل بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية، في مجال استطلاعات الرأي العام، اعتدت أن أقول إنني أعمل بكل ضمير ، وأحارب في نفسي الوقت بكل ضمير؟ .. ببساطة شديدة في مطلع التسعينيات كان إجراء الاستطلاعات والحصول على موافقة لتنفيذها، من إدارة المركز ومن خارجه (الجهات المعنية) عملية تستغرق فترة طويلة، تعوق سرعة النتائج والاحتياج إليها.. وبالطبع فإن العمل ضمن فريق جماعي، ليس سهلاً، وأحياناً يكون بعض أعضاء الفريق (وأنا منهم) يمثل تهديداً للآخرين، ويعرضه بشكل شبه متواصل إلى مصادمات وصراعات.

في عام ١٩٩٣ - ووسط هذه الأجواء المشحونة - اتصل بي مكتب الأمير طلال بن عبد العزيز، لإجراء مقابلة معه.. ذهبت في الموعد المحدد في مكتبه بالزمالك، لا أدرى سبب اللقاء، ولا مصدر معرفته بي، وكنت في حقيقة الأمر متوترة للغاية.. كان هو - الأمير طلال - أول من أقابل من «أمراء» أو ملوك أو حكام.. حين دلفت إلى مكتبه الأنيق، دخل مباشرة في سبب المقابلة .. كان الأمير طلال بن عبد العزيز هو مؤسس ورئيس المجلس العربي للطفولة والتنمية - منذ عام ١٩٨٦ - وكان معروفاً لدي بأنه يؤمن بالعمل العربي المشترك، ويبدل مجهودات رائدة في هذا المجال.

قال لي: «إنه قد سمع عن بحوثي ونشاطي في مجال الجمعيات الأهلية، وأن أساتذة أمريكيين (بجامعة جونز هوبكنز) التقى بهم في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي حديثه معهم عن رغبته في «بناء إطار عربي للعمل الأهلي»، اقترحوا عليه اسمي لتنفيذ هذا العمل..» كان هذا فقط هو الإطار المرجعي لعمل الذي يتطلع إليه.. تحدثت مع سمو الأمير طلال بن عبد العزيز عن تعقيدات وصعوبات كثيرة، سوف تواجهنا للكشف عن عمق الجمعيات الأهلية العربية، وأنه «مشوار طويل» ملئاً بالتحديات.. المهم أن هذا اللقاء ترك عندي انطباعات جيدة للغاية، عن إنسان محترم، يستهدف تحقيق المصالح العربية والتقريب بين الأشقاء العرب.. إنسان يحترم النساء ويحترم البشر، ويتحدث معهم بكل صدق وتلقائية.

وبعد أقل من شهر من هذا اللقاء الأول، تسلمت عملي الجديد في وضع استشاري، وبعد أن حصلت على إجازة بدون مرتب من المركز القومي للبحوث الاجتماعية.. ولدة خمس سنوات - من ١٩٩٣ إلى ١٩٩٧ - كنت أعمل بكثافة شديدة ، وسافرت إلى كل الدول العربية، أجمع البيانات والبحوث المحدودة المتوافرة، وأقابل وزراء الشؤون الاجتماعية، وأبني علاقات و صداقات مع قيادات العمل الأهلي.. شخصيات محترمة جادة، تبذل جهوداً تطوعية هائلة، للنهوض بالمجتمعات العربية.



وبطبيعة الحال تكررت لقاءاتي مع الأمير طلال بن العزيز ، لمتابعة العمل التحضيري، الذي تضمن إصدار مجلة المظلة، وبناء قاعدة بيانات أولية للجمعيات الأهلية ، وبناء قدرات هذه المنظمات. خلال هذه السنوات التي عملت فيها مع هذا الرجل المحترم، كان دائماً «الإنسان» بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ، يخاطبني - أنا والآخرون - بكل احترام ومودة، حتى إنني قلت لسموه في إحدى المقابلات «حضرتك أمير قوي والله» .. اندهش جداً لهذا التعليق ، فقلت له إننا في مصر نطلق على الإنسان الطيب المحترم الخلق لقب «أمير» .. ابتسم وكان سعيداً بهذه المجاملة المصرية التلقائية من جانبي.

عملت تحت قيادة الأمير طلال بن عبد العزيز ، منذ عام ١٩٩٧ - بعد إعلان تأسيس الشبكة العربية للمنظمات الأهلية في القاهرة وتعييني مديرة لها - وحتى نهاية عام ٢٠١٥، أي لمدة ٢٢ عاماً كاملة، لم أجد منه إلا المساندة والتشجيع والمودة والاحترام.. وكان من الطبيعي في مثل هذا المناخ الإيجابي، أن يتطور عمل الشبكة العربية للمنظمات الأهلية، بشكل مذهل.. ثم إصدار ٥٧ عملاً علمياً يثري المكتبة العربية، والآلاف من الجمعيات الأهلية العربية، التي تحصل على تدريب متميز في إطار برامج بناء القدرات، وورش العمل والمؤتمرات المتتالية.

وحين اتخذت قرار الرحيل، وكتبت له استقالتي، بعد ٢٢ عاماً من العمل والجهد المتواصل، حرصت على أن أعبر لهذا الرجل الإنسان «الأمير طلال بن عبد العزيز» أنني تشرفت وسعدت للعمل معه طوال هذه السنوات، وأنه لولا مساندته وتشجيعه وإيمانه العروبي العميق، ما كان يمكن أن نستمر وأن ننجح كل هذه السنوات.

**تحية للأمير الخلق الإنسان، الذي أحب مصر والمصريين، وأحترم صغيرهم قبل كبيرهم، وأعطى سنوات عمره للنهوض بالمجتمعات العربية.. تحية لصاحب السمو الملكي الأمير طلال بن عبد العزيز.**

## «التمرد مفيد أحياناً»

التمرد، ورفض ما هو تقليدي، ورفض «القوالب النمطية» للبشر، ومسارات الحياة التي قد يراها البعض لازمة وضرورية، كل هذا كان مغروساً في شخصيتي، ويكبر معي عاماً بعد عام.. في طفولتي صنعت «علم» من الورق، أجرى به في طرقات وحجرات الشقة الواسعة (كنا نعيش في منيا القمح - شرقية؛ حيث كان والدي مديراً للمستشفى) وأقول «أنا بنت أنا بنت» وبكل فرحة.. ثم في جولة أخرى أقول: «أنا حرة أنا حرة».. وإذا سئلت لماذا؟ لا أعرف.. تدريجياً حين دخلت المدرسة - وكانت مدرسة مشتركة تجمع البنين والبنات من المرحلة الابتدائية حتى نهاية المرحلة الثانوية - كنت أَلعب مع الأطفال الذكور، أَلعبهم نفسها، وأندمج معهم أكثر من «البنات».. في مرحلة أكبر أصبحت أستخدم تعبير «صاحبي» و«صاحبتي».. وحين التحقت بالجامعة، لم أشعر بالخوف مثل زميلات أخريات من الجنس الآخر، وكان الجميع أصحابي.. بدت ملامح التمرد حين تخرجت في الكلية، وحين يسألني البعض عن الحب وعن الزواج.. وأقول لماذا؟ سوف أتزوج حين أحب، وأقول «هذا الرجل أحبه هذا الرجل أريده»، وكانت أحاديثي كاشفة عن هذا التمرد.. لماذا يصبح الزواج مطلباً رئيسياً للفتيات بمجرد التخرج والحصول على الشهادة؟ ولماذا يجب علينا جميعاً اتخاذ نفس المسار، ثم بعد الزواج انتظار الأولاد، ألا يمكن أن تسير «الحياة طبيعية» دون أن ننشغل بهذه الأمور.. كان من الواضح - وما زال حتى هذه اللحظة - أن هناك «قوالب اجتماعية» لابد أن ندخل أنفسنا فيها، حتى لو كانت غير ملائمة لنا.. أعتقد أن الزواج حتى هذه اللحظة «هو قرار إداري».

دائماً ما يكون التبرير هو «الضغط الاجتماعي»، وأنا أعلنت رفضي للضغط

الاجتماعي.. وبلغ التمرد من جانبي أقصاه، حين توفيت والدي رحمها الله، واخترت أن أعيش وحدي، ورفضت إقامة أي شخص من أسرتي معي، ورفضت أن أنتقل لأعيش مع أي أحد كان، بل ورفضت وانزعجت كثيراً من ضغط البعض عليّ، لكي أتزوج كحل لهذا الموقف «الذي يراه الناس» عيباً وغير مقبول اجتماعياً.

في الثمانينيات، حين اتخذت هذا القرار، كانت مواجهة ضغوط اجتماعية من الجيران والزملاء والأصدقاء، «مواجهة عنيفة»، ولم أكن أتصور بالمرّة، أن قرار الحياة بمفردتي، سوف يستفز آخرين. أفهم أنه قرار ليس سهلاً بالمرّة، خاصة في أسرتي، فقد كنت في «ريعان شبابي» كما يقولون، وأعمل وأسافر وأخرج مع أصدقائي، وعلى قدر معقول جداً من الرفاهة المادية.. لكنني وعدتهم، وقبلها وعدت نفسي، بأن أحترم التقاليد التي نشأت عليها.. ولكنني لا أفهم تدخل كثير من الناس في خصوصيات حياتي، والتي تهمني وحدي، ولم أفهم - وما زلت - قدر انشغال الناس بحياتي، أو بالآخرين.. هل هو الفراغ؟ أم هو نظرة حسد لأن اتخاذ القرار باستقلالية كان أمنية آخرين؟ أم أنه يعكس رغبة مجتمعية ثقافية بالحفاظ على القوالب النمطية التي اعتاد عليها المصريون؟

المهم أنني شخصية متمردة، وبالمعنى الإيجابي، وما زلت حتى هذه اللحظة «أعلن العصيان»، على ثقافة مجتمعية، قائمة على التمييز وتصنيف البشر - سلوكهم وأفكارهم - إلى أبيض وأسود.

## «الزواج .. ولكن بشكل خاص جداً»



حين قررنا - مختار  
وأنا - الزواج، وبعد سنوات  
من الحب والخصام والتردد،

ذهبنا إلي المأذون لعقد القران، واثنان من الشهود الأصدقاء، عصر يوم ٢١  
مايو ١٩٨٧، وهو نفس يوم وفاته - رحمة الله عليه - بعد ٢٣ سنة من الزواج..  
كل ما فعلته هو إخطار أختي تليفونياً بالزواج، ومباركتهم لهذه الخطوة، وقد  
كانوا يعيشون خارج مصر.. وبالطبع كانت سعادتهم بالغة، فقد فقدوا الأمل  
والرجاء في أن أتزوج، واعتادوا عدم مناقشة الموضوع معي، احتراماً لخصوصيتي  
وإرادتي.. ولكنني كنت أشعر بقلقهم المتزايد

**المهم كان عقد القران مجرد «مشوار» لعمل إجراء، دون إبلاغ للآخرين. انتهينا**

حوالي السابعة، وذهب مختار إلى عيادته بشارع رمسيس يتابع مرضاه، وعدت وحدي إلى المنزل مندهشة من هذه الخطوة «الشجاعة والجريئة».. أطمئن نفسي بأنني يمكن أن أنفصل عنه، حين أطلب، إذا لم أشعر بالسعادة والسكينة.. وقد أخذت منه «وعد» أنه سينفذ فوراً قرار الانفصال، إذا لم أشعر بالسعادة.

**ولطبعتي المتمردة، طلبت المهر ٢٥ قرشاً، وكذلك مؤخر الصداق، كنت أرى أي**

**لا أباغ ولا أشتري، وإن ماله لا يعينني في شيء، وتعلمت من خبرة متابعتي لصديقاتي**

**أن «التفاصيل المالية» هي الشر الأعظم».. واستمرراً «للمرء» ذهبت في اليوم**

التالي من زواجي إلى عملي (المركز القومي للبحوث الاجتماعية) وحضرت اجتماعاً

الساعة العاشرة صباحاً حتى الثانية عشرة ظهراً، ثم لاحظ أحد الحضور (أعتقد

أنه كان الأستاذ السيد يسين) أن هناك دبلة في اليد اليسرى.. ثم التفت الجميع

إليّ بكل دهشة يتساءلون.. قلت «تزوجت».. وأعلق الملف.. قضينا - زوجي وأنا

- أسبوعاً «للعسل» في الإسكندرية، وبعد عودتنا دعونا الأصدقاء وأقرب الناس

لنا لسهرة خاصة جميلة، في أحد المطاعم الشهيرة بالمهندسين - في ذلك الوقت

- وكان ذلك هو الفرح، وبعد الزواج بعدة أسابيع.. قل إنني متمردة، أو إنني

«مجنونة» كما تشاء، لكنني فعلت ما أريده وما أحبه وما يقنعني، لا مهر ولا

مؤخر صداق (بخلاف ٢٥ قرشاً وقع عليها زوجي ومازالت في حافظة نقودي)،

ولا ترتيبات مسبقة، ولا فرح، ولا تدخلات من أي إنسان.. لا سعادة مع تفاصيل..

لا سعادة مع اتفاقات مالية.. لا سعادة مع تدخلات البشر في صميم حياتي.. كنت

وما زلت فخورة بقراراتي المستقلة، غير التقليدية، التي أطاحت - في رأيي -

بثقافة مجتمعية عقيمة، واعتبرت أن ذلك «انتصار».

قضينا سنوات زواجنا في توافق ومحبة واحترام متبادل، كنا - كما كنت

أقول - لكل منا دائرة شخصية ومساحة للحرية، لكن الدائرتين تتقاطعان معاً

وتصنعان مساحة مشتركة جميلة وثرية، تستند على الصداقة والصراحة والحوار.

## « أم .. ولا تنجب »

إن الزواج - من منظور الناس - لا ينفى استمرارية ضغوط الثقافة المجتمعية العاشقة للقوالب التقليدية والتنميط، وهو الأمر الذي استقرني بشدة.. بمجرد زواجي بدأ الجميع يسأل عن الإنجاب «لأزم تخلفي عيال»، «العيال تربط جوزك بك أكثر»، «أنوثة المرأة هي في الإنجاب»، «العيال أهم حاجة في الجوان».. في أخبار جديدة؟ يسألون وأقول «عن إيه»؟ عن الأولاد.. يقولون.. تزايدت حدتي في مثل هذه المناقشات والتساؤلات، بل وطلب البعض أن أذهب للطبيب لمعرفة سر تأخر الإنجاب، والأكثر من ذلك السؤال المصري السخيف «العيب عند مين».. حين يحيطني «الاهتمام المزعوم» من جانب الناس بخصوص ضرورة الإنجاب، أقول ده «رزق من عند الله»، وهناك أسر كثيرة بلا أطفال، ولا أنشغل بالموضوع.

ولكن في حقيقة الأمر انشغلت وحدي في السنوات الأولى للزواج بهذا الموضوع، وتمنيت الإنجاب، وكنت أحب زوجي، وأحترمه كثيراً، يكبرني في العمر، لكنه كان مصدر الحنان والاستقرار في حياتي، وكان صاحب عقل متفتح ومستدير.. وأنا امرأة أحببت وتزوجت بمن اختارته، وطبيعي للغاية أن أتمنى الإنجاب.. لكن الأمل بدأ ينسحب ويتراجع تدريجياً، ومع ذلك لم أفقد سعادتي يوماً، ولم أحزن، ولم أكتب.. بل إنني تحاورت مع نفسي كثيراً، وقلت «كله خير»، لدي أبناء إخوتي وأبناء أصدقائي وزملائي، و«كل أبناء الناس هم أطفالي».. وفكرت في إيجابيات هذا المنطق الجديد الذي قنعت به، أصبح لدي مساحة أكبر لي ولزوجي، ومساحة أكبر للاهتمام بعملتي، والارتقاء في مهنتي، كما أن لدي مساحة كبيرة من المشاعر وحب العطاء، سوف أوجهها لمن حولي.. وسارت الحياة على هذا النحو.

إن حبي للأطفال لم يتوقف يوماً واحداً، وقناعتني بأن الحياة ليس فيها مسار واحد ومصير واحد تزداد، وتدرجياً تزايد عدد أبنائي واهتمامي بهم، واكتشفت «طاقة عطاء» لا تنضب، وإحساس الأمومة لدي يتزايد.. الحب عندي، دائماً يختلط بمشاعر الأم، التي ترعى من تحبهم - حتى وإن كانوا أكبر عمراً - وتهتم بمشكلاتهم، وتسهم في حلها، و«تخاف» عليهم، وترقبهم بفخر، وهم يكبرون أمام عينيها.. ولدي الآن عشرات وعشرات من الأبناء، بعضهم تزوج وأنجب، فأصبحت جدة، وبعضهم ما زال يبحث عن طريقه، وأقف بجانبهم.. يسألون عني دائماً، ويسألون «ماما أمانى» إذا تعرضت لشدة، لا يوجد في نفسي أي شعور بالحرمان، فقد عوضني الله بعشرات الأبناء، بدلاً من طفل واحد، وفجر داخلي ينبوعاً من الحب والعطاء.



## «هل للسياسة موقع في حياتي؟»

لقد تعلمت في الجامعة في عهد عبد الناصر، وعملت وحصلت على الماجستير في العلوم السياسية في عهد السادات، وبرعت في عملي في البحث العلمي في عهد مبارك حين أنهيت الدكتوراه. وأصبحت أقود مدرسة جديدة في علم السياسة، تكسر الحواجز بين العلوم الاجتماعية - وللمرة الأولى - ويمتد صداها إلى كل المنطقة العربية، ثم الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا.

وفي كل هذا التدرج المهني والعلمي، لم أنطلع بالمرّة إلى أي منصب سياسي، أنا باحثة حرة لي آرائي التي أعبّر عنها في الكتب والمقالات والمؤتمرات، وليست لدي أية طموحات لشغل أي موقع سياسي.. كنت أتابع الحياة السياسية في مصر - والمنطقة العربية - بدقة بالغة، وأتبنى آراء نقدية إزاء آليات العمل السياسي والعمل العام، من نقابات مهنية وأحزاب سياسية، ومنظمات المجتمع المدني (وبالمناسبة كانت هذه على التوالي هي اهتمامات البحث العلمي الذي انخرطت فيه).. رفضت العضوية في الحزب الوطني، وغيره من الأحزاب، وفضلت مساحة من الحرية تتيح لي النقد.. ورفضت تعييني بالبرلمان، اعتذرت وقلت «شخصيتي ليست مؤهلة لهذا الدور».. والحمد لله كنت قانعة تماماً بما حققته، وأفعل فقط ما أجيده.

إن علاقتي بالسياسة أو بالعمل العام، جاءت فقط عام ٢٠٠٠، حين صدر قرار رئيس الجمهورية بتشكيل المجلس القومي للمرأة، وكنت أنا أحد الأعضاء الثلاثين. وانتابتنى دهشة بالغة حين اتصل بي زوجي، خلال أيام عمل لي في الكويت، ليقول «مبروك تم اختيارك لعضوية المجلس القومي للمرأة».. وأنا أرد «ليه؟ يعرفوني منين؟ هم عايزين مني إيه؟»..

وعدت إلى القاهرة بعد يومين لأجد جميع أصدقائي، يثيرون معي نفس



الأسئلة.. منهم من قال إن النظام «يتجمل بشخصيات معارضة»، ومنهم من يقول إنه «تحييد لمواقف معارضة»، والقلة يرون أن هذا اختيار صائب وفي محله.. وبدأت في فتح صفحة جديدة، أخط سطورها الأولى في العمل العام امتدت من عام ٢٠٠٠ إلى عام ٢٠١١، حين قدمت استقالتي للمجلس العسكري بعد ثورة ٢٥ يناير. إن سطور هذه الصفحة، تكشف عن تفاني في العمل العام التطوعي، وحب دفين لكل شبر في مصر، ورغبة قوية للنهوض بالنساء الفقيرات.. وتكشف عن تفاعلات محترمة للغاية بين نخبة من المجتمع اجتمعت حول أهداف واحدة.. وهي سنوات كشفت عن مدى احترام السيدة الفاضلة رئيسة المجلس للأعضاء، وعن عملها الدعوى لتطوير وضعية النساء المصريات.. وهذه شهادتي لها، فأنا أقيم الشخصيات جميعها التي أعرفها، في حدود خبرتي في التعامل معها.. وليس بمنهج الأبيض أو الأسود.. لقد سمح لي عملي بالمجلس القومي للمرأة، إلى جانب شخصيات محترمة للغاية، لكي أطلع على «المطبخ السياسي»، وأتابع وأقيم بشكل شخصي وزراء ومحافظين وأعضاء مجلس الشعب ومجلس الشورى، وذلك عن قرب، وبشكل موضوعي.. أدهشني جداً فئة من المنافقين والمتملقين، أدهشني أكثر أن هذه الفئة كانوا بين «نجوم» المرحلة التالية بعد ٢٥ يناير.. وانزعجت كثيراً من البعض منهم الذين حرصوا بعد ١١ فبراير، ورحيل الرئيس الأسبق حسني مبارك، على توجيه النقد له وزوجته السيدة الفاضلة سوزان مبارك، سواء في الصحف أو في الفضائيات.. منهم - للأسف الشديد - من اختلق الأكاذيب إزاء وقائع محددة (شاهدتها بنفسني) أو إزاء هذه «السيدة الخلوقة» التي كانت تحترم الجميع.. لقد كانت هذه الأحاديث تؤكد لي أنني اخترت الطريق الصحيح.. لا موقع للعمل السياسي عندي، بل لا موقع لي - كشخصية عامة - في الإعلام.. أكتب في الصحف ما أريد التعليق عليه، ولكن رفض تام من جانبي للظهور في الفضائيات.

## «هل يحب الرجل المرأة القوية»



هذا تساؤل مشروع جداً، يشغل بال نساء ورجال، وقد يتناقشون فيه بحرية، وفي الأغلب يصمتون، لكن سلوك بعض الرجال واختياراتهم، تكشف عن أفكارهم وتوجهاتهم.. في تقديري أن «المرأة القوية»، ليست المرأة المتسلطة، أو عالية الصوت، أو الأنانية، أو سليطة اللسان أو... أو.. إن المرأة القوية هي المرأة القادرة على إدارة شئون حياتها، واتخاذ قراراتها بحرية، وهي المرأة «الصامدة» في مواجهة أزمات وأعاصير الحياة.. والحياة أفرزت أمامنا نساء كثيرات، وغير متعلمات، ولكنهن نساء أقوياء وأصحاب حكمة ورأي وموقف، يحترمه الجميع.

هل يخاف الرجل من المرأة القوية؟ صفحات حياتي تقول لي وبوضوح: إن هذا هو الاتجاه العام، ولكنه يرتبط أيضاً بشخصيات ذكورية ضعيفة، تخشى أي مناقشة أو حوار محترم مع «المرأة القوية»، وغالباً ما يتجنبها من البداية حين يفكر في الزواج.. بينما الرجل الناجح الواثق في نفسه، والمستنير، والمدرك «للقيمة المضافة» التي يحققها حين يقترن بالمرأة القوية، والقادرة على الاعتماد على ذاتها، دون إلقاء أعباء وهموم وصغائر على كاهله، هو هذا الرجل الذي يعشق المرأة القوية، «ويروضها» في الوقت نفسه.. وإذا كانت هذه خبرة حياتي مع مختار زوجي - رحمه الله - فإن أيام حياتي تقول لي أيضاً: إن المرأة القوية لا تحب ولا تتزوج إلا من رجل قوي.. وتقول لي أيضاً، لا توجد قواعد واحدة صارمة للعلاقات الإنسانية.. من الزملاء الرجال من يهاب المرأة القوية في عملها ويتجنبها.. ومن النساء أيضاً من يخشى في ممارسة العمل المهني، التعامل مع شخصيات قوية واضحة وذات كفاءة.. وللإنصاف أيضاً من النساء، من يعشق التعامل مع شخصيات ضعيفة تخضع لهم.

وبصراحة أنا عاشقة «للرجل القوي» الهادئ المثقف المسيطر على مقاليد حياته، سواء كان زوجاً أو حبيباً أو صديقاً، وعاشقة أيضاً «للمرأة القوية»، لا أخاف منها أو أخشاها، على العكس هي مصدر قوة لي، فهي لا تشعر بتهديد «الأخر».

## «الرئيس الحريري.. وأنا»

قابلت في مسار عملي، كمدير لمنظمة عربية إقليمية - وهي الشبكة العربية للمنظمات الأهلية - شخصيات وقيادات ورؤساء دول في مناسبات متعددة.. لكن أتذكر دائماً، وبكل خير مقابلاتي المتتالية للرئيس الحريري، في عام ٢٠٠٢، حين كنت أستعد لعقد المؤتمر العام للشبكة في بيروت.. ذهبت إليه، في مقر مكتبه ومعني مساعدتي، لترتيب عدة أمور مهمة، تتعلق بإعداد المؤتمر ورعايته من جانب الرئيس الحريري، وترتيب استقبال ١٥٠٠ مشارك من مختلف الدول العربية.

كانت أجندة العمل تتضمن عشر نقاط، من بينها عقد المؤتمر في قاعة مؤتمرات اليونسكو ببيروت، وإعفاء المشاركين من رسوم تأشيرة الدخول إلى لبنان، والسماح لحوالي ١٠٠ مشارك من فلسطين للدخول إلى الأراضي اللبنانية، والترتيبات الأمنية وغير ذلك.. كانت مقابلة «مرحبة» وبإتسامة عريضة خرج إلينا من مكتبه لاستقبالنا، ودعانا إلى شرب القهوة معه، اتجه إلى مائدة جميلة على يمين المقاعد الوثيرة التي جلسنا عليها ليعد لنا القهوة، وبكل بساطة.. وبمجرد بداية الاجتماع فعلياً، حضر سكرتيره الخاص، ليدون المطالب، وبعد كل مطلب كان يقول كلمته الشهيرة done أو «أمرك ست أمني».. وفي خلال ٢٠ دقيقة فقط وافق على كل المطالب والتسهيلات.. وبالفعل نفذها جميعاً كما وعد، وألقى خطاباً افتتاحياً رائعاً في مؤتمر الشبكة العربية للمنظمات الأهلية، يتناول وقائع فعلية من داخل لبنان تؤكد لنا أن القطاع الأهلي هو الذي أدار الدولة فترة الحرب الأهلية، وأن المطلوب هو شراكة حقيقية فاعلة، بين الأطراف الثلاثة: الحكومات والقطاع الخاص، والمنظمات الأهلية.



إن هذه البساطة التي قابلنا بها، والابتسامة العريضة على وجهه، والمساندة التي قدمها لنا، لا يمكن نسيانها.. ولا أنسى أيضاً حفل العشاء الذي دعانا إليه في مقر إقامته، وكنا نقترّب من ١٠٠٠ مدعو للحفل إذ وقف بنفسه يرحب بكل شخص على حدة، وكأنه الضيف الوحيد في حفل العشاء.. لم يفرق في استقباله بين كبار الضيوف العرب من أمثال الأمير طلال بن عبد العزيز، أو رئيس البنك الإسلامي، أو رئيس الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي.. الكل ضيوفه.

رحم الله الرئيس الحريري، الذي أحرص على زيارة قبره، كلما ذهبت إلى

بيروت.

## «نيران صديقة جداً»

أعجبني جداً تعبير «نيران صديقة»، الذي سمعناه للمرة الأولى، وأضحك البعض، خلال الغزو الأمريكي للعراق، في السنوات الأولى، للألفية الثالثة.. فعلاً حين يراجع أي منا أيام حياته، سوف يكتشف أنه تلقى في بعض الأحيان، نيران من أصدقائه، قد يكون أحدهم قد خذلك تماماً حين احتجت إليه، أو أفشى أحد أسرارك، أو شعر بالغيرة منك لنجاحك، أو شعر بالتهديد وهو أو هي إلى جوارك.. وبقدر الألم الذي شعرت به - أنا شخصياً - من النيران الصديقة، إلا إنني أدرك أننا بشر، وكل منا له جوانب القوة وجوانب الضعف، كان يدفعني إلى محاولة تجاوز الألم، وتجاوز الصغائر «وبسرعة».

**إن أشد «النيران الصديقة» هي التي تتطلق من أشخاص هم الأكثر قرباً منك، وتشعر بالسعادة وأنت إلى جوارهم، تفرح لفرحهم، وتحزن لحزنهم، تراقب حياتهم وتطورهم ونضجهم، وتشعر بالفخر لإسهامك في دعمهم واستجابتهم لك. ثم فجأة وبعد سنوات، حين تنتهي علاقتك بالعمل، وكلك يقين أن هذا لن يؤثر على علاقتهم الشخصية بك، وسوف يستمر حبهم لك، نكتشف أنك تعرضت لأكبر «خدعة» في حياتك.. لقد نسوا حبك وفضلك ورعايتك لهم، يحذفون رقم موبايلك من أجندتهم، ويحذفون صداقتك من حسابات الفيس بوك، ويتفرغون ويتطلعون إلى مدير جديد، فوجودك في حياتهم لم يعد له مبرر.. هذه النيران الصديقة جداً، مؤلمة للغاية، احتاج علاجها مني عدة شهور، وكانت الأقسى لأنها كانت ممن اعتبرتهم دائماً «أبنائي»، وكنت أقول إنهم هدية من الله سبحانه وتعالى..**

أدعو الله ألا يتعرض أحدكم لهذه «النيران الصديقة»، فهي قاسية ومؤلمة.  
ولكن مع قسوة النيران الصديقة، وجروح القلب التي أحدثها بي ، قلت أن «لغة  
المصالح» كاذبة، ومهما تطول الأيام والسنوات، سوف ندرك أنها كانت الرابطة  
الوحيدة التي كانت بينهم وبيننا.. ورغم اكتشافني فجأة «سذاجة مشاعري» إلا أنني  
لم أندم على قدر عطائي وحببي لهم، على العكس هم الذين سيندمون ويحزنون،  
ومؤكد سوف يشعرون بخسارة وفقدان من أحبهم وقدرهم وعلمهم لسنوات.. ومن  
جانبي أنا أشكر هذه «النيران الصديقة»، التي علمتني «عدم السخاء» في المشاعر  
مع الجميع.



## «زجاجة المياه.. والمحافظ.. والسيدة سوزان مبارك»



في مطلع عام ٢٠٠٦، ذهبت إلى محافظة المنيا مع د. فرخندة حسن أمين عام المجلس القومي للمرأة، وبعض الزملاء من الأفاضل أعضاء المجلس (أذكر منهم د. محمود الشريف)، وذلك لافتتاح فرع المجلس القومي في المنيا.. ذهبنا إلى هناك كل منا بسيارته الشخصية، ووصلنا في تمام العاشرة صباحاً، على أن تصل السيدة سوزان مبارك حوالي الحادية عشرة، لافتتاح المقر الجديد للمجلس في المنيا، بالإضافة إلى إعلان نتائج المسح الميداني الذي أجراه المجلس القومي للمرأة للنساء الفقيرات المعيلات لأسر.. وكان من المقرر أن أقوم بطرح النتائج العامة، في أكثر القرى فقراً بمحافظة المنيا.

وهناك اجتمع أساتذة الجامعة ورئيسها، وأعضاء الحزب الوطني، ومجموعة كبيرة من ممثلي الجمعيات الأهلية، وأعضاء فرع المجلس القومي للمرأة، في محافظة المنيا.. لقد كان هذا الموضوع - النساء الفقيرات المعيلات لأسر - من القضايا المهمة التي كشف عنها المجلس في سنواته الأولى، وكان على أولوية اهتمامنا منذ بداية تأسيس المجلس عام ٢٠٠٠.

بعد حوالي ساعة من الانتظار، شعرت بالظماً الشديد، فذهبت إلى مسئول البوفيه؛ حيث توجد زجاجات المياه وبعض الفطائر، لأطلب زجاجة مياه.. فوجئت



برد الأخ المسئول بالرفض القاطع، ومنع الاقتراب حتى تصل السيدة الأولى..  
المهم أثرت مشكلة كبيرة معهم للدفاع عن «الحق في شرب المياه» وتدخل البعض  
من المسئولين لتأكيد أن هذه تعليمات السيد المحافظ، و«ممنوع الشرب»!!  
أبدت قبولاً ظاهرياً واتخذت قرارى بالإعلان عن هذا الموقف العجيب، وأمام  
الجميع (المحافظ والسيدة سوزان والمشاركين في المؤتمر).. وبعد حوالي ساعتين  
من بدء المراسم الافتتاحية، والخطابات الجميلة المعتادة، خاصة من جانب السيد  
المحافظ، وذلك عن محافظة «بلا فقر» وعن تطور أوضاع «شعب المنيا»، خاصة  
النساء، أتى دوري لعرض نتائج الدراسة الميدانية، وجميعها عكس كل ما ذكره  
المحافظ.. عبرت في بداية كلمتي عن سعادتي البالغة.. لماذا؟ لأني «أخيراً سأتمكن  
أمام الجميع من شرب المياه».. وتوجهت بنظري - وفي يدي زجاجة المياه - إلى  
السيدة سوزان والمحافظ، لأقول أنني الآن بعد ساعتين ونصف من الانتظار،  
أستطيع أن أشرب وهو أحد حقوق الإنسان.. وأشرت إلى قرار منع الحضور  
من الاقتراب من البوفيه حتى تصل السيدة سوزان مبارك. ارتبك المحافظ للغاية  
ولم يكن لديه ما يقوله.. والسيدة سوزان تنظر إليه وتقول «معقول الكلام ده يا  
سيادة المحافظ.. المنيا هي أهل الكرم كله».. وبمنتهى الهدوء أمر سعادته بتوزيع  
زجاجات المياه على الجميع.. وبدا غضبه الشديد في التشكيك في نتائج البحث  
العلمي، وأن نسبة الفقراء في المنيا محدودة، وأن «هذا كلام غير واقعي».. واضح  
أن سيادته لم يطلع على النتائج الرسمية لجهاز حكومي، يتحدث عن أن نسبة  
الفقراء في محافظة المنيا كانت عام ٢٠٠٥ حوالي ٥٠٪ (تزايدت عام ٢٠١٥  
لتصبح ٦٠٪ من سكان المنيا تحت خط الفقر).. وكان ردي عليه في النهاية  
ضرورة تصديق البيانات الرسمية التي خرجت عن حكومته.. و**صفق الجميع في  
نهاية الجلسة بعد أن حصل كل منهم على زجاجة مياه**، وبعد أن نصحته باحترام  
شديد لمعرفة البيانات الرسمية عن الفقر والفقراء في محافظة المنيا.  
وعدت إلى منزلي بالقاهرة في مساء هذا اليوم، ليستقبلني زوجي بابتسامة  
عريضة ويقول: «أنا تزوجت مجنونة ولا إيه؟» التلفزيون نقل الواقعة على الهواء،  
ضمن بث وقائع المؤتمر!!

## «البيت الكبير»

«البيت الكبير» هو التعبير الذي كان يستخدم في الماضي، ليعبر عن بيت العائلة، وتحديداً بيت الجد والجدة، حيث يلتقي الأبناء كل يوم جمعة، ومعهم أولادهم لتمضية النهار معاً وتناول الغداء.. **يوم الجمعة كان الاحتفال الأسبوعي لكل الأسرة** والجميع حريص على ذلك اليوم، رغم خشيتنا كأطفال من كسر القواعد الصارمة التي اعتاد البيت الكبير - بمن فيه - على احترامها.. موعد الغداء تمام الساعة الثانية والنصف، اللعب الهادئ، تجنب الاشتباكات الطفولية بين أطفال العائلة.. وبمرور السنوات كبر الأحفاد وأنا منهم، وأصبح «كل واحد منا يتمرد على «يوم البيت الكبير»، هروباً من القواعد الصارمة التي كان علينا احترامها.. أتعلل بحاجتي إلى الاستذكار أو الامتحانات.. وهكذا كل منا يلتف ليحصل على حريته، يوم الجمعة «الإجازة الأسبوعية».

**ولكن تعلمنا الكثير من «البيت الكبير»، وافتقدناه كثيراً، بعد أن مضي كل واحد منا في طريق، وتوفيت إلى رحمة الله «ماما زهيرة» الجدة الكبيرة، صاحبة الشخصية والكلمة النهائية في البيت، ومن قبلها بسنوات توفى إلى رحمة الله جدي أحمد.. هذا التقليد اختفى من معظم العائلات المصرية، وقد تعلمنا منه احترام كبار السن، وممارسة «صلة الرحم» بشكل مستمر، وبناء علاقات مودة ومحبة بين كل أطراف العائلة.**

**ومهما كانت تضايقي القواعد التي وضعها أهل البيت، إلا أنني تعلمت منها أهمية احترام هذه القواعد، وقيمة النظام، والانضباط في المواعيد حتى ونحن ذاهبون للقاء الأهل.. العائلة الكبيرة.. صحيح أنني كنت أتمرد أحياناً، لكنني**

أفتقد كثيراً «البيت الكبير»، فنحن إذا اجتمعنا الآن - اخوتي وأنا - للغداء معاً، يتحمل الشباب من العائلة «عبء ضياع الوقت معنا»، وكل منهم يلجأ إلى تليفونه المحمول، حتى فترة تناول الطعام.. صعب أن يكون بين الكل حديث مشترك، وأحياناً ما تختلف الأطراف، وتتحول إلى مشادات وأصوات عالية، وتصميم كل شخص على رأيه وتتدخل نحن الكبار للتهديئة.. عالم آخر مختلف تماماً، أصبحنا نعيش فيه، نتابعه دون أن نحاول تغييره.. لا جدوى من المحاولة، ولا عودة «للبيت الكبير».



## «سفر يوم إفلاس دولة»

في أكتوبر عام ٢٠٠١، سافرت إلى الأرجنتين، وهي بالفعل من أجمل بلاد العالم، لكي أشارك في مناقشة مشروع بحثي مقارن عن نظم الخدمة العامة للشباب.. وقد كان الاجتماع الدولي الذي يضم خبراء في العمل التطوعي، يجمع حوالي ٢٠ مشاركاً من دول العالم، وقد كان من المخطط له أن يعقد في الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن الأحداث المتتالية للعمل الإرهابي في سبتمبر ٢٠٠١، قد أدت إلى عقد هذا اللقاء في عاصمة الأرجنتين.

وبعد رحلة طويلة، وصلت إلى الأرجنتين، في التاسعة صباحاً - وهو يوم عقد الاجتماع - ومن شدة الإرهاق لم ألاحظ في المطار، ولا وأنا أستقل التاكسي في العاصمة، قاصدة مكان الاجتماع، أن بعض الأماكن؛ حيث تتواجد البنوك- أمامها حشود هائلة من البشر.. لم أتمكن من الحديث مع سائق التاكسي الذي لا يتحدث الإنجليزية، ولكن كان انطباعي الخاص أن هناك «حدثاً ما» مهماً، وقد يكون سياسياً.. على أي الأحوال شاركت في الاجتماع في اليوم الأول، وعلمت من بعض المشاركين أن الأرجنتين، قد أعلنت إفلاسها، وأن هذه الحشود الجماهيرية هم عملاء البنوك يرغبون في سحب مدخراتهم.

ونزلت مع مجموعة من الزملاء إلى وسط المدينة الجميلة، وكان سائق التاكسي سعيداً للغاية، بحصوله - وفقاً لطلبه - على دولارين.. وانخفضت الأسعار إلى الحضيض، نتوجه للعشاء في أفخم المطاعم، ونسدد فقط ما يعادل خمسة دولارات!! نذهب أربعة أشخاص بسيارة «فان» سياحية لمشاهدة معالم المدينة الجميلة، لمدة يوم كامل، وكل منا يسدد ما يعادل خمسة دولارات.

أجلنا العودة يومين، بالفندق الفاخر جداً يحصل على ما يعادل ٣٠ دولاراً

أمريكياً لليلة.. كان شعوري الشخصي أن هذا «استنزاف» من جانبي لشعب مهذب للغاية ونوع من «الاستغلال» لكل الأطراف التي أتعامل معها، وهو استغلال لم يكن بإرادتي بالمرّة.. الكل يفرح أن معه بعض النقود، مهما كانت قليلة، سائقو التاكسي والفندق والمطاعم والمحلات. فالقواعد صارمة أمام المودعين لسحب أي عملة أجنبية أو العملة الوطنية.

المشتريات تزايدت بالطبع، خاصة الجلود التي اشتهرت بها الأرجنتين، وأصابني حالة من «الكرم الحاتمي» لشراء هدايا للجميع بأسعار متدنية وخيالية، والبعض منها كان بإلحاح البائعين.. البلد بشوارعها الواسعة الجميلة، والأشجار على كل جانب، لا يمكن نسيانها، ولم يرتبط «إفلاس البلد» بأي تخريب أو مظاهرات أو أحداث شغب، فقط حشود هادئة وهائلة أمام البنوك.

وعدت إلى القاهرة، وأنا أتخيل ماذا لو كان في ذلك في مصر؟ المهم عام وراء عام وخرجت الأرجنتين بسلام من هذه الأزمة، بل وحققت مؤخراً معدلات نمو غير مسبوقة.. ومازالت هذه الرحلة بكل أبعادها في ذاكرتي، وأقول الله يسترك يا مصر.



## «هؤلاء جميعاً.. أبنائي»



بعد أن انتهيت من إعداد رسالة الدكتوراه، ومناقشتها، بعد عامين وبضعة أشهر من تسجيلها، تخيلت أو تصورت، أنها «مشروع عمري»، وأتني سأحظى بقدر كبير من الراحة والاسترخاء. لكنني كنت على خطأ في هذا الظن، حولي مئات وآلاف حصلوا على درجة الدكتوراه، ولم أسمع عنهم بعد ذلك، ولدي شخصياً أصدقاء منهم.. ليس لديهم أي تمييز علمي، أو مجال بحثي تخصصوا فيه.. قال لي أستاذي د. على الدين هلال، إذا كان لي أن أوجه لك النصح فإن «الدكتوراه» هي بداية العمل والتميز، والحصول على الدكتوراه هو البداية... وشاء الله أن أرتبط بأول مشروع علمي، بعد أسبوع فقط من مناقشة رسالتي، وكان إعداد التقرير الأول للمنظمة العربية لحقوق الإنسان (والذي خرج إلى النور عام ١٩٨٦).. وقد أفادني هذا العمل كثيراً، ولفت انتباهي إلى المنظمات الحقوقية، التي كانت

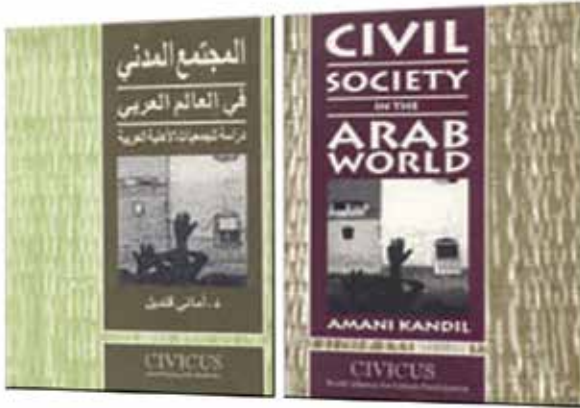
بداية ميلادها في هذا التوقيت.. بعد ذلك مباشرة بدأت الاهتمام بشكل مكثف بجمعيات رجال الأعمال، ودورها في التأثير على السياسة الاقتصادية، ثم تنامي اهتمامي بالنقابات المهنية، خاصة مع تحركات جيل الشباب، الجيل الأوسط فيها، في إطار توجهات إسلامية.. وهذا الجيل الذي قاد جماعة الإخوان المسلمين للعمل السياسي في الألفية الثالثة (سواء في عضوية البرلمان أو في استقطاب قاعدة شباب الطبقة المتوسطة).

وقد صدر عن مؤسسة الأهرام عام ١٩٨٩، كتاب لي بعنوان «الدور السياسي للنقابات المهنية».. هذا العمل الذي لاقى ذيوماً وانتشاراً كبيرين، على المستوى الوطني، وعلى المستوى العالمي، شجعتني إلى درجة كبيرة لارتداد مجالات مماثلة، لم تلق أي اهتمام من مدرسة العلوم السياسية، في مصر والمنطقة العربية.. عند هذه النقطة، بدأت رؤيتي لمشروع العلمى الذي أتبناه تتبلور تدريجياً، واتجهت نحو فتح ما أطلق عليه «الصندوق الأسود» وهي الجمعيات الأهلية، حتى قبل تصاعد الاهتمام الإقليمى والعالمى، بما يعرف «بالمجتمع المدني».

كتاب «الجمعيات الأهلية في مصر»، الذي يضم ٦٠٠ صفحة، وبمشاركة الزميلة د. سارة بن نفيس، كان «بداية صعود» إذا جاز هذا التعبير.. وبعد نشره بعدة شهور، والكشف عن الأبعاد السياسية والاقتصادية والدينية التي ترتبط بهذا الموضوع، اتصلت بي جامعة جونز هوبكنز الأمريكية للمشاركة في فريق عالمى (لا يزيد أعضاؤه على ١٥ خبيراً)، يستهدف إرساء القواعد المنهجية لدراسة وتطوير ومقارنة، الأدوار التي تلعبها المنظمات التطوعية في العالم.. لقد استمتعت كثيراً واستفدت للغاية من التفاعل العلمى الخلاق بين الفريق الدولى من مختلف أنحاء العالم، والذي اعتمد على الحوار وتبادل الخبرات، خلال عملية شاقة لإرساء التعريفات والتصنيف والمعايير.

هذه المرحلة التي شهدت سلسلة من الدراسات العالمية باللغة الإنجليزية،

وباللغة العربية (من جانبي)، كانت قد بدأت عام ١٩٨٩ لتنتهي المرحلة الأولى من مشروع جامعة جونز هوبكنز عام ٢٠٠٠ (١١ عاماً من العمل الجاد والبحث والتثقيف استغرقها هذا المشروع). وشاء القدر خلال عملي البحثي هذا، أن يتم تكليفي من جانب الأمير طلال بن عبد العزيز - وهو الرائد في دعم وتشجيع العمل الأهلي - بتأسيس الشبكة العربية للمنظمات الأهلية، والتي تم إعلانها رسمياً في القاهرة عام ١٩٩٧.. سبقها خمس سنوات من العمل الدؤوب للكشف عن معالم القطاع الأهلي في الدول العربية، صدر خلالها كتابي عن «المجتمع المدني في المنطقة العربية» - وهو العمل الأول - عن هذا الموضوع، وتم نشره باللغة العربية والإنجليزية والفرنسية- ثم تراكمت أعمالتي وأفكاري وخبراتي، لتكون المحصلة ٢٧ عملاً علمياً، تم نشرها في إصدارات متتالية، لتعكس خطوات مشروع علمي متكامل - غير مسبوق - يثري المكتبة العربية.. هؤلاء جميعاً، هم أبنائي. «علم ينتفع به».





## «تسعة جنيهات»

تسعة جنيهات شهرية، هي مكافأة التفوق في الثانوية العامة حين التحقت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وهي مكافأة مالية ورمزية ضخمة للغاية، وفي هذا الزمن.. تسعة جنيهات في نهاية الستينيات، قدراتها الشرائية ضخمة، عشرات الأضعاف لقيمة هذا المبلغ حالياً.. أتذكر أن أول كل شهر، وعمرى ١٦ عاماً فقط، أذهب بكل فخر وبكل شوق أيضاً، لاستلام ٩ جنيهات.. ثم أعود لمنزلي سعيدة جداً، ومحملة بالهدايا.. أيوه والله العظيم، ثم أدخر باقي المبلغ.. إن تسعة جنيهات فقط علموني - مبكراً - معنى الاستقلال المادي، ومعنى الرشادة الاقتصادية، ومعنى أن أجنبي المال من عرقي وكفاحي ومعنى الاعتماد على نفسي فقط.. وكذلك معنى إسعاد الآخرين.

وبعد عام من انتهاء هذه المنحة المالية التي كانت تسدها الحكومة للمتفوقين، بدأت أعمل كل شهور الصيف، أول عام كان عملي فترة الصيف في بنك مصر، لا أذهب لقضاء وقت الفراغ، ولكن أساعد - في إطار مجموعة من القيادات المحترمة - لإنجاز العمل.. وأحصل على نفس المكافأة العظيمة (٩ جنيهات)، وأسير يومياً من منزل الأسرة بشارع قصر العيني إلى بنك مصر في وسط البلد، لأمارس عملي المحدد لي بدقة، والذي يبدأ تمام الثامنة صباحاً حتى الساعة ٣.٣٠ عصرًا.. تدريب على تحمل المسؤولية والجدية والاختلاط بالعاملين، دون خوف أو رهبة، وهو تدريب أيضاً على الرشادة في إنفاق هذه الثروة دون ضحكة أو ابتسامة أو سخرية، ولكنني وبكل صدق استمتعت للغاية وتعلمت كثيراً، وترسخت لدى قيم كثيرة، بفضل التسعة جنيهات.

حين أحي قصتي مع الجنيهاات التسعة، أغلب من يستمعون إليها يضحكون، وبعضهم في مثل عمري، أما الشباب فهم لا يصدقون أن هذه الجنيهاات القليلة التي كنت أحصل عليها، كانت «قوة شرائية».. قد أعزهم في ذلك، ولكنني لا أجد أي عذر لهم لعدم فهم الرمز من وراء هذه القصة.. مكافأة للتفوق والتميز، وغرس مشاعر جميلة بقيمة الاستقلال المادي، وقيمة الجهد والكفاح.



## «إن فاتك الميري اتمرغ في ترابه»

أنا أنتمي لجيل كان يؤمن تماماً بالمثل الشعبي الذي يقول «إن فاتك الميري اتمرغ في ترابه»، هذا جيل نشأ وترى في عهد عبد الناصر، وتأميم القطاع الخاص، والالتزام بتعيين الخريجين، وتوفير التأمين الاجتماعي لهم.. ومن ثم من الطبيعي أن تبحث عن «الميري» أي عمل في الحكومة، يضمن لك الأمان، ويضمن لك الترقى - بغض النظر عن مواهبك وإمكاناتك - ثم يضمن لك المعاش.. عملت في الإذاعة (٨ سنوات) وهي جهة حكومية، ثم في المركز القومي للبحوث الاجتماعية (١١ عاماً)، وهي أيضاً جهة حكومية، توفر الكادر الجامعي، ثم كان عملي الجديد في مؤسسة عربية (عام ١٩٩٣) وهو ما كان تمرداً من جانبي على المثل الشعبي «إن فاتك الميري اتمرغ في ترابه».. في السنوات الأولى من التسعينيات كرهت «الميري»، ورفضت «التمرغ في ترابه».. ظهر لي «الميري» في هذه السنوات، وكأنه الجحيم، بما يعج فيه من بيروقراطية، ومن سلوكيات وقيم ترفض التفوق وترفض الإبداع.. أهداني القدر عملاً خاصاً مختلف، كله تحديات، ويزخر بالإبداع، وتسلمت عملي الجديد «محملة» بهدف واحد فقط، وهو تأسيس إطار عربي مؤسسي، يضم الجمعيات الأهلية القوية.. كان بحثي عن الطريق كله مصاعب، هذا عمل عربي يتخطى الحدود القطرية، البيانات والمعلومات محدودة جداً، ولا توجد قواعد بيانات، وقد تكون سرية (حالة مصر نموذجاً في التسعينيات من القرن العشرين)، والكشف عن هذا الميدان لن يتم إلا برضاء الحكومات.. بدأت منذ ذلك التاريخ (١٩٩٣)، أنتقل من دولة عربية إلى أخرى، وأعقد لقاءات مع أطراف حكومية، وأخرى أهلية، وأحصل على أي دراسات أو بيانات متوفرة، والأهم أبنى صداقات قادرة على دعمي في المرحلة التالية.

**وتدريجياً اتضحت الصورة، وبدأ المشهد العام أمامي يتبلور، وأصبحت مهمتي**

تدور حول عدة محاور أولها البدء في بناء قواعد بيانات عن الجمعيات الأهلية في

كل بلد عربي، وثانيها تنظيم سلسلة عن الدورات التدريبية لبناء القدرات، وثالثها إجراء البحوث والدراسات، وبناء جماعة أكاديمية معنية بالموضوع.

### **و حين أنظر ورائي - رغم أنني دائماً أنظر للمستقبل - تتابني الفرحة والشعور**

**بالفخر..** لقد نجحت، وفريق العمل العربي إلى جانبي، في تدريب الآلاف من الجمعيات الأهلية العربية، وأعدنا ونشرنا ٥٧ عملاً علمياً عن القطاع الأهلي العربي، ووفرنا أحدث قاعدة بيانات في المنطقة العربية عن الجمعيات الأهلية وتصنيفها.. والأهم بناء جماعة أكاديمية عربية معنية بهذا المجال البحثي (١٣٠ باحثاً في كل الدول العربية).. أليس كل هذا كراماً من الله سبحانه وتعالى، أفاض به على أماني، لتعويضها عن سنوات كفاحها، والآلام والآمال التي حاصرتها طوال العمر، وكم أسعد حين ألقى نظرة واحدة إلي حصاد ٢٢ عاماً !!

### **إن شيوع المثل العامي أو الشعبي، إن فاتك الميري اتمرغ في ترابه، قد يكون**

**مقنعاً وملئماً لمن يخشى الجديد، ويرفض الخروج عن الخط المرسوم له، قد يوفر الأمان لصاحبه، وقد يكون من يقتنع بهذه المقولة شخص لا موهبة له، وغير مبدع.. بينما قبول المخاطرة والثقة في النفس، يدفعان إلى «رفض تراب الميري».**



## «بيروت .. رايح جاي»

في عام ١٩٩٧، وبعد إعلان تأسيس الشبكة العربية للمنظمات الأهلية، وتعييني مديراً لها، حرص أصدقائي في لبنان، على تنظيم حفل كبير لي في بيروت، وهم في أغلبهم شخصيات عامة من قيادات العمل الأهلي.. تم توجيه الدعوة لي وإلى زوجي لكي يتم الاحتفاء بهذه المناسبة، والتي يرونها تستحق الاحتفال.

**سافرنا ونحن سعداء للغاية، ونستعد لقضاء عدة أيام، في بلد أعشقه، وأتعلم منه منهج الحياة والبهجة والفرح، إذ أن حب الحياة هو سمة عامة للبشر في لبنان، وذلك على الرغم من كل الظروف التي تعرض لها البلد في الحرب الأهلية..** كانت الرحلة على شركة مصر للطيران، وفي شهر ديسمبر، وتستغرق حوالي الساعة والربع.. ومع إعلان الطيار أننا نستعد للنزول في مطار بيروت - ونحن نري الأضواء عبر البحر الأبيض المتوسط - اهتزت الطائرة بقوة شديدة وبدا أن قائد الطائرة «يصارع الرياح القوية».. ظلت الطائرة في السماء تدور حول نفسها، ثم تصعد إلى أعلى، وتنخفض إلى أسفل، وبقوة، وصرخ الركاب، ودخلنا في موجة من الرعب، مع تساقط أمتعة المسافرين على أرض الطائرة، ومع إغماء تعرضت لها مضيئة الطائرة.. **لقد أدركنا أن الموت يقترب منا لا محالة، وفي لحظات، وبدأنا نردد الشهادتين..** قال لي زوجي وهو يمسك يدي: «لا تخافي اهدي، لن نشعر بشيء.. سوف نتعرض لهبوط حاد في الدورة الدموية، ولن نشعر بسقوط الطائرة.. الحمد لله نحن معاً».. استسلمت وأغمضت عيني، وفي لحظة واحدة ارتفعت الطائرة إلى أعلى، وبدأت تستقر في السماء، وبهدوء.. ونستمع إلى صوت قائد الطائرة وهو يقول: «الحمد لله نحن في طريقنا الآن إلى مطار القاهرة الدولي» وعدنا إلى أرض مصر، غير مصدقين أننا نجونا من

موت كان قريباً جداً منا.. وهرعت سيارات الإسعاف وسيارات مطافئ، وإنقاذ، لتحيط بالطائرة من كل جانب.. ولا أنسى بعض المصريين وهم يقبلون الأرض ويسجدون شكراً لله.. وتم استقبال ركاب طائرة مصر للطيران، التي كتب الله لها النجاة، وأخبرنا الشخص المسئول، أنه خلال ساعتين سوف تغادر الطائرة إلى بيروت.. كان على كل من يرفض السفر، أن يعلن عن نفسه ويتسلم أمتعته الشخصية.. نصف الركاب رفضوا السفر، و**حقيقة كنت أنا شخصياً أول من يرفض العودة لبيروت**، ولكن زوجي - رحمه الله - نصحني بالسفر مرة أخرى ونبهني أن عملي يقتضي السفر دائماً، وإذا امتنعت، لن أكون قادرة على السفر مرة أخرى.. ووحدي.

استسلمت لنصيحة زوجي، وجلسنا نتحدث مع أسرة لبنانية في قاعة المطار، أصبحوا لنا أصدقاء أعماء فيما بعد، حتى حان وقت المغادرة، وتوكلنا على الله، ووصلنا بيروت بعد ساعة.. كانت المفاجأة أننا سافرنا على نفس الطائرة التي كادت تسقط في أعماق البحر، ومع نفس قائد الطائرة الشجاع، والذي يقول لنا «إذا لم أقد نفس الطائرة وأعود بكم إلى بيروت ما كان يمكن أن أقود أي طائرة أخرى.. لقد كانت دوامة رياح غير متوقعة».

وذهبنا إلى الحفل، والجميع يهنئونا على سلامة الوصول أولاً ثم الترقية التي حصلت عليها.. وكانت لحظة فارقة بين الموت والحياة.. ويا لها من لحظة.

## «معنى أن تكون جزءاً من أحداث سبتمبر ٢٠٠١»

دعني منظمة الأمم المتحدة، لأكون متحدثاً رئيسياً في مؤتمر عالمي يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١، في نيويورك، أشارك فيه «برؤية عربية» لتفعيل دور منظمات المجتمع المدني في التنمية البشرية المستدامة. أسعدتني الدعوة كثيراً، وأعددت ورقة بحثية موجزة، ومحترمة، عن الموضوع، تلقي الضوء بشكل واضح - وموثق - على هذه المنظمات التطوعية والفرص والإمكانات المتاحة لها.. وسافرت إلى نيويورك، في العاشر من سبتمبر ٢٠٠١، واسترحت في يوم الوصول، استعداداً لمحاضرتي ومشاركتي في هذا المحفل المهم «.. كله تمام» كما نقول.

ارتديت ملابس مبكراً صباح ١١/٩/٢٠٠١، في انتظار صديق عزيز - وهو د. هشام عودة ابن الراحل المحترم د. عبد الملك عودة - الذي يعمل بالأمم المتحدة: لكي يصطحبني في سيارته إلى مقر المنظمة.. وقبل أن نتوجه مباشرة - ونحن جاهزون تماماً، نتلقى مكالمات هاتفية استغرقت لحظة واحدة من أحد أعضاء البعثة المصرية في الأمم المتحدة، ويفتح د. هشام عودة التلفزيون وينادي بأعلى صوته «أمان.. مش معقول مش ممكن».. هرعت إليه وأنا في غاية الانزعاج، لأرى على التلفزيون مباشرة «حادث القرن الحادي والعشرين».

طائرات تخرق البرج العالمي للتجارة، وانهيار تام من أعلى إلى أسفل، وصراخ وضجيج وفوضى عارمة.. في البداية ولأول وهلة، تصورت أنه فيلم سينمائي، وأسأل هشام «ده حقيقي ولا فيلم».. ثم جلسنا بعد دقائق على الأريكة نحاول التقاط أنفاسنا، ونتابع الحدث. بعد ساعة عادت زوجته من العمل، تبكي، وفي حالة انهيار تام تحكي عن الفوضى في الشوارع، وجنون وعصبية الناس جميعاً في كل مكان.. وكان لابد من تصرف سريع من الزوجين لإحضار الأبناء من

المدارس، عادة بعد أكثر من ساعة ومعهما الأولاد سيكون، وأنا أشاهد التلفزيون وأتابع الأحداث على الهواء.

وقبل الإعلان الرسمي عن تفاصيل هذا العمل الإرهابي غير المسبوق، كنا ندعو الله ألا يكون من بينهم مصريون أو عرب أو مسلمون.. وبدأت الأخبار تتدفق بسرعة وتتوالى، نعرف من هم، ونعرف الأحداث المماثلة في واشنطن، ونستمع إلى تحذيرات الأمن.. عدة أيام لم نغادر المكان، وعدة أيام لم نستطع إجراء مكالمة دولية واحدة، لطمأنة أهلنا في مصر (يومين أو ثلاثة لا أذكر).. وبالطبع تم إغلاق المطار تماماً، وكان يفترض في العودة إلي مصر يوم ١٤ سبتمبر (أي بعد ثلاثة أيام وهي أيام المؤتمر).

**أيام قاسية ومؤلمة ونحن نتابع ونشاهد ونسمع عن عدد الضحايا، ثم كان** لا بد أن ننزل لنشتري احتياجاتنا.. كانت بعض المحال مغلقة، وعدد الناس محدود، وكانت هناك شوارع مغلقة، والأخرى تمتلئ برجال الأمن، والاشتباه في السيارات وإيقافها كان إجراءً عادياً.. إلا أن صديقتي الحبيبة - ذات الشعر الأسود ولون وجهها الأسمر الجميل مثل أكثر المصريين - كان مستفزاً لقائدي بعض السيارات، ولل بعض من الأمريكيين المشاة أو في المحلات.. وبالطبع تعرضت - وأنا معها - إلى شتائم وإهانات وكان أبسطها «ارجعوا إلى داركم».

أن تكون جزءاً من الحدث، وتشهد بنفسك «الفوبيا» التي انتابت الأمريكيين، ضد الإسلام والمسلمين والعرب، بل وتصاعدها لتكون ضد المهاجرين ككل، يجعلك تتفهم تماماً التغييرات السيكولوجية والاجتماعية - وبالطبع الإجراءات الأمنية - التي اتسم بها المجتمع الأمريكي، بعد هذا العمل الإرهابي.

وسط هذه الأجواء، كنت في نيويورك، ومطار كيندي مغلق، ونصحني بعض الأصدقاء من البعثة المصرية بالأمم المتحدة، للاستعداد للرحيل في أي لحظة.



وبعد حوالي أسبوعين، أبلغني أحد الأصدقاء أن طائرة مصر للطيران سوف تغادر منتصف الليل إلى القاهرة. وكانت أول طائرة تغادر المطار. وصاحبني د. هشام عودة، ومعه اثنان من الأطباء المصريين إلى مطار J.F.K. لقد كان الطريق موحشاً، مهجوراً، والأمن في كل مكان لنصل إلى المطار، وتعرض لأسوأ عملية تفتيش شهدتها في حياتي، وأسوأ معاملة، وتم منع البعض من السفر (منهم أحد المضيفين وطيّار مساعد) وأخيراً نصبح على متن طائرة مصر للطيران حيث ثمانية ركاب فقط قبلوا المخاطرة، وطاقم طائرتين.. سلمنا أمرنا لله وحده، ونحن ندعو أن نصل آمنين سالمين. وفي لحظة إعلان قائد الطائرة عن مغادرتنا المجال الجوي الأمريكي، نقول الحمد لله والله أكبر. ووصلنا القاهرة الحبيبة بعد ١٣ ساعة طيران، نبكي بكاءً مريراً غير مصدقين أننا خرجنا من أرض الجحيم، ووصلنا إلى الوطن.

أن تكون جزءاً من الحدث أمر مختلف تماماً عن متابعته إعلامياً، وأن تكون جزءاً من الحدث يعني أيضاً أن تفهم ولو جزئياً التشدد في الإجراءات الأمنية، حتى وإن كان فيها بعض الأذى، ويعني أننا كنا شهوداً على أهم حدث في القرن الحادي والعشرين.

## «نيروبي ١٩٨٥ .. وصفحة جديدة»

المؤتمر العالمي للمرأة الذي تم عقده في نيروبي - كينيا عام ١٩٨٥، فتح لي صفحة جديدة للاهتمام العلمي والعملية بقضايا المرأة؛ حيث استمعت وقابلت للمرة الأولى، الرموز العربية والعالمية النشطة في الدفاع عن حقوق المرأة.. كانت عملية «تعلم» مثمرة فقد أدركت حجم الفجوة بين النساء والرجال في فرص التعليم والعمل وفي التنشئة داخل الأسرة، كما كانت الفرصة الأولى لي للمشاركة في ورش العمل المعنية بالعنف ضد المرأة (وكانت أبرزها ختان الإناث بالنسبة لنا في مصر).

إن عشرة أيام من التعلم ومن التفاعل مع المنظمات الحقوقية النسائية (والتي كانت فيما بعد أحد محاور دراساتي العلمية)، صاحبها إدراك من جانبي عن مدى مسئولية «الخطاب النسوي» عن جزء من إخفاق الحركة النسائية العربية، على وجه التحديد.. كانت قامات عربية كبيرة مشاركة، إلا أنها - من وجهة نظري - اتسمت بالتطرف الشديد في أغلبها، سواء في أفكار أعلنتها (منها مسئولية الدين عن عدم إنصاف المرأة العربية، وإغفال مسئولية البيئة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية) أو في أسلوب ومنهج الطرح والنقاش.. لاحظت مدى إعجاب المشاركين من الدول الغربية، بهذه الأطروحات «شديدة اللهجة إزاء الدين»، بينما القلة المعتدلة المناصرة لحقوق المرأة تحدثت عن سياق سياسي واجتماعي واقتصادي شامل.. تابعت معارك بين الطرفين، بعضها كاد يصل للأسف إلى الاشتباك بالأيدي.. وتكونت لدي وجهة نظر تذهب إلى أن الخطاب المعتدل والتريجي والمناسب للبيئة الثقافية، قد يكون «أكثر فعالية»، حين يتوجه إلى القواعد الجذورية الشعبية، وحين يرتبط بتوجه تعليمي وتنموي.



**وللمرة الأولى، تسافر السيدة سوزان مبارك - باعتبارها سيدة مصر الأولى-**  
للمشاركة في المؤتمر العالمي للمرأة (نيروبي ١٩٨٥).. وعلى الرغم من أن هذه هي  
المشاركة الأولى لها على المستوى العالمي، إلا أنها كانت أكثر من رائعة، في  
مضمون خطابها المناصر للمرأة، وفي إشارات المتكررة لتقاليد وعادات وثقافة  
- أي البيئة الثقافية - ومدى مسئوليتها عن الفجوة بين الإناث والذكور. كانت  
أنيقة للغاية، وتتسم بالبساطة والتواضع، خاصة في حفل العشاء الذي أقامته  
السفارة المصرية للترحيب بها، وبالمشاركين من مصر.. وكما علمت منها فيما  
بعد، فإن مشاركتها هذه - الأولى عالمياً - كانت عاملاً حاسماً، في صياغة  
أولويات اهتمامها في اتجاه النهوض بالنساء والأطفال في مصر.

**وبعد نهاية هذا المؤتمر، ولمدة يومين، ذهبت مع بعض الصديقات إلى رحلة  
«سفاري»، في سيارة «مصفحة» للتجول في الغابات ومشاهدة الحيوانات الشرسة،**

حيث تعيش.. نزلنا في فندق صغير مشهور يسمى أعلى الشجرة «Top Tree»، يضم ١٠ غرف صغيرة فقط يستند على شجرة ضخمة للغاية، وحوائطه الزجاجية تطل على بحيرة جميلة وسط الغابة.. لا أنسى - ولن أنسى ما حييت - حين أطلقت إدارة الفندق الصفارة (وهي تشير إلى تواجد حيوانات تشرب من البحيرة)، شاهدت الأمومة بعينها.. الفيل الضخم بعد ولادته لأطفاله - كما قيل لنا - يحمل طفله (الفيل الصغير جداً) ويذهب به للبحيرة يستحم، ويشرب، ثم يتركه على الشاطئ، ويذهب بالآخر بكل هدوء وحنان.. أزعجني للغاية الأسد؛ ملك الغابة» حين جاء ليشرب.. ثم أذهلني أكثر تراجعته عن البحيرة بهدوء، حين شاهد «الفيل الأم» مع أطفالها.. سبحانك يا ربي الحيوان الشرس ملك الغابة، أكثر إنسانية أحياناً من البشر.

وعدت إلى القاهرة، وأنا أطوي صفحة نيروبي، ولكنني مباشرة أفتح صفحة جديدة للاهتمام بالمرأة المصرية.. لتتوالى الصفحات عبر الكتب والدراسات، وعبر المؤتمرات العالمية، وفي محافظات مصر. ومن خلال عضويتي بالمجلس القومي للمرأة.. علم يتراكم وخبرات تتراكم، وكل خطوة تقود إلى الأخرى.

## «التحليق مع النجوم»

ما أجمل الليل، وما أجمل النجوم التي تضيئ الليل، وتضيئ حياتي.. حكايتي مع النجوم تبدأ منذ طفولتي.. أتابعها.. أنظر إليها.. أبحث عنها إذا اختفت.. وأسأل: «أيه الأنوار الحلوة دي؟ ده فرح مش كده؟» طيب مين عملها؟ ربنا.. «عنده فرح؟» اهتمام كبير وشغف من جانبي، لم يشبعه إجابات الكبار.

**هكذا بدأت حياتي مع النجوم، التي كنت أحلق معها، وهكذا أحببت الليل..** أنام عند عودتي من المدرسة أو الجامعة، وأسهر الليل كله، أتطلع إلى النجوم التي تزين السماء، وأرتاح دقائق من الاستنكار، ثم أعود إلى غرفتي للمذاكرة، وهكذا.. حتى الفجر، مع الليل، والنجوم، وصفحات الكتب، والموسيقى أو الأغاني - بصوت منخفض «تؤنسني».. كنت أستمتع بالساعات الطويلة التي أقضيها أثناء الدراسة مع النجوم، وكانت الآمال العريضة في اجتياز مرحلتي الماجستير والدكتوراه تتجسد لي في النجوم.. حتى «لمست النجوم بأيدي»، كما تقول أم كلثوم في أغنية جميلة لها.

سافرت كثيراً، وبدأت التحليق مع النجوم، سافرت إلى ٦٧ دولة في العالم، وحلقت مع النجوم بها.. زرت الغالبية العظمى من الدول العربية، ومن الدول الأوروبية، والولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وكثير من دول أمريكا اللاتينية، والدول الإفريقية.. شعرت مرتين فقط أنني لا أحلق مع النجوم فقط، «وإنما ألمسها»، كانت المرة الأولى حين سافرت من بيروت إلى دمشق في إحدى الليالي مع زوجي الحبيب، والسيارة تخترق الطرق الضيقة على الجبال، والنجوم تقترب مني - وليس أنا التي أقترّب منها - وأقول لله.. «لمست النجوم بيدي».. المرة الثانية حين كنت في جنوب إفريقيا، وفي مهمة عمل، و«حطقت مع النجوم»، حين

سافرت عبر «الجمال الشاهقة» (والتي سألني أستاذي في المدرسة وكتب لي عنها على ورقة الإجابة: «هل تعشقين تسلق الجبال الشاهقة؟») إلى «رأس الرجاء الصالح» حيث اجتزنا الطريق ليلاً، لنتابع بزوغ الشمس في رأس الرجاء الصالح.. وهناك أشاهد محيطين يلتقيان، وعند نقطة اللقاء، كل منهما له لونه الخاص.. يا الله على الجمال.. لحظات لا أنساها، أهداها الله لي.

وفي منطقة لقاء المحيطين معاً، عشرات وعشرات من «الطاووس»، الطائر الملون الجميل، كل يزهو بنفسه، ومجموعات من السائحين من كل بلاد العالم، يتطلعون في صمت وذهول إلى نقطة رأس الرجاء الصالح، ويتعجبون - معي - عن صدام المحيطين بهدوء، ودون اختلاط اللونين الأزرق الغامق والأزرق الفاتح.. ثم في عصر ذلك اليوم، نعود إلى الفندق - حيث نقيم - وعلى يسار السيارة البحر، وعلى اليمين قصور وفيلات وفنادق.. وتنزل السيارة بهدوء من أعلى الجبل إلى أسفل؛ حيث «الكيب تاون» وأتطلع إلى النجوم حين حل الليل، وأحمد الله «أنني أحلق مع النجوم» أحياناً.



## «العراق ... صدام، وأنا، ونحن»



نحن مجموعة من أساتذة العلوم السياسية في مصر، شكلنا في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، الجمعية العربية للعلوم السياسية، والتي انضم إليها عشرات من أساتذة السياسة من العراق والأردن ولبنان والسودان ودول المغرب العربي، وبعض دول الخليج العربي، اعتادت الجمعية في كل عام عقد مؤتمر في عاصمة عربية، برعاية الدولة المضييفة والأعضاء من البلد محل الانعقاد. **لقد ضمت الجمعية «نجوم السياسة» في مصر وفي البلدان العربية، وكنا** نستهدف بناء جماعة أكاديمية عربية فاعلة، تتحاور حول أهم القضايا العالمية والعربية، ونسهم معاً في تطوير دراسة العلوم السياسية في المنطقة العربية.. إن الجمعية العربية للعلوم السياسية، تبنت نظام الانتخاب لرئيسها وأعضاء اللجنة التنفيذية، وكنت أنا أحد أعضاء اللجنة المنتخبين - المرأة الوحيدة- ورئيسها هو

د. علي الدين هلال، أستاذ علم السياسة المرموق بجامعة القاهرة، ومعنا نخبة متميزة من الزملاء والأصدقاء.. وكان ذلك قبل غزو العراق لدولة الكويت مباشرة، كان اجتماعنا في بغداد.. ودوماً كنا نستمتع بزيارة العراق، بنية رئيسية قوية، حدائق، فنادق فاخرة، مطاعم عربية عراقية جميلة، مقاهٍ نجلس عليها ساعات الليل الجميل، ومع المصريين العاملين في العراق (في المناطق الشعبية).

### **المهم مضى يومان، وانتهى الاجتماع وكنا نستعد للمغادرة - على خطوط**

**الطيران العراقي - من بغداد إلى القاهرة..** في منتصف هذه الليلة اتصل بنا السيد طارق عزيز، وزير الخارجية، وقد كان معنا في الاجتماع، ليبلغنا أن «شخصية مهمة» سوف تقابلنا في الصباح الباكر.. في واقع الأمر أنا أعلنت عن رفضي، بسبب الإرهاق الشديد الذي حل بي، إلا أن د. علي الدين هلال - ونحن جميعاً في نفس الفندق - خاطبني كتابة، أنه غير مسموح لأي شخص يرفض مقابلة صدام حسين.. وقبل الفجر كانت سيارات سوداء «معتمة» تنتظرنا أمام فندق شهرزاد، لتصل بنا فجر ذلك اليوم، إلي مكان لا نعلم عنه أي شيء، وبدأت رحلة التفتيش «المضنية» من خارج القصر، وعبر بوابات إلكترونية وحرس جمهوري، من النساء والرجال.. لا رد على التحية و«لا كلام ولا سلام».. وبمنتهى الصرامة طلبت إحدى سيدات الحرس (سمراء ذات بنية قوية) أن أخلع نظارتي ودبلة الزواج.. وبانفعال رفضت، وأمام إصرارها وصوتها الصارم، قلت بالحرف الواحد.. «أنا لم أطلب لقاء أي شخص وبالتالي لن أدخل القصر.. سأنتظر بالخارج أو أعود».. حاول زملائي وأساتذتي إقناعي بالموافقة.. **المهم أني اعتقدت «لبراءتي» أني حققت انتصاراً** «ما زالت الدبلة في أصبعي والنظارة على وجهي».. ولكن دخل الجميع (عددهم ١٢ شخصاً تقريباً) إلى حجرة واسعة فخمة على الجانب الأيسر من قاعات القصر، بينما أجد أربع سيدات يصطحبنتني إلى حجرة أخرى على الجانب الأيمن.. لم يستطع أي منا أن يتفوه بكلمة واحدة.. نحن في قصر صدام حسين والكل يعلم



أن «المجازفة» كبيرة.. وفي هذه الحجة تعرضت لأسوأ خبرة؛ حيث بدأت سيدات الحرس الجمهوري في عملية تفتيش ذاتية لي، ويبدو أنه العقاب المحدد حين قلت لا أرغب في المقابلة، ولم أطلب أنا المقابلة.. وبعد حوالي ٣٠ دقيقة، خرجت حيث يجلس الزملاء، وأنا أبكي، ولم ينطق أي منهم بكلمة.. كانوا أكبر عمراً مني وأكثر نضجاً، ويعلمون أنه يتم تصويرنا بالصوت والصورة.

ثم أتى إلينا بعد نصف ساعة أخرى، السيد طارق عزيز، ومجموعة من الحرس، لدخول من حجرة إلى أخرى ثم إلى أخرى، يقف على بابها صدام حسين، يرتدي السترة العسكرية، وتحتها السترة الواقية من الرصاص.. وجه شديد البياض مع حمرة شديدة، وكأنه في «متحف الشمع».. ومع تعارف وتحية كل منا يتم التقاط صورة «تذكارية».. ثم ننزل إلى قاعة دائرية، أسفل قاعة الاستقبال، يرحب بنا، ويتحدث عن الحرب العراقية الإيرانية، وأشياء أخرى عن السياسة العراقية، وجمل وإشارات غير مفهومة عن الحدود بين العراق ودول الجوار.. كنت شاردة الذهن بعد التفتيش الذاتي، وخائفة، لا أنطق وموعد طائرة المغادرة يقترب كثيراً.. وحين ألمح أحد الزملاء لذلك، ذكر صدام حسين باقتضاب «الطائرة العراقية لديها تعليمات بانتظاركم».. وبعد عدة ساعات اتجهنا إلى المطار، لنجد الطائرة والركاب في الانتظار.. إنه صدام حسين.

## «القرار الحاسم.. في اللحظة المناسبة»

في حياة كل منا لحظات يتحتم علينا فيها، أن نتخذ قرارات، وبعضها قد يكون مصيرياً، يحدد المسار الشخصي والمهني للإنسان، ويحدد مستقبله.. صحيح أن هناك أموراً قدرية يكتبها الله لنا، ولكن الصحيح أيضاً أن هناك قرارات حاسمة تؤثر على مسارنا في الحياة، وعلى مستقبلنا نتخذها نحن، ونقررها، ونسأل الله أن يوفقنا.

**أهمية القرار في الحياة الشخصية والحياة العامة (في السياسة والاقتصاد.. وغير ذلك) يرتبط باللحظة الزمنية، والتوقيت الملائم.. فقد يكون مطلوباً ومهماً، إلا أنه لا يتواءم مع اللحظة والظروف السائدة، والتي يمكن أن تخلق معوقات كثيرة تؤثر على نجاح القرار.. حين عشقت العمل الإعلامي، والتحققت به في مسار حياتي المهنية - وبعد تخرجي في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - أدركت أنه من المستحيل أن استمر في هذا العمل.. وقد شبهت مرحلة العمل في ماسبيرو «بالعشق من جانب واحد»، تمنيته وعشقتة وعملت فيه بكل اجتهاد، إلا أنه - أي الإعلام - لا يبادلني الحب.. ملامح الفساد وتهميش الكفاءات والواسطة والنفاق والصراع، بدت لي ملامح أساسية.. كان «المخرج» بالنسبة لي الانتهاء من رسالة الماجستير والبدء في تسجيل رسالة الدكتوراه.**

انتهيت من عملية الاستعداد «للخروج الآمن» بعد عامين، وكانت هذه اللحظة هي الحاسمة لتقديم استقالتي والالتحاق بالكادر العلمي (مدرس مساعد) في المركز القومي للبحوث الاجتماعية.. وهناك حصلت على منحة دراسية للدكتوراه

في باريس، وانتهيت من الرسالة العلمية، وعملت في بحوث جماعية مع فريق العمل بالمركز إلا أنني تعرض لمضايقات كثيرة - وفي إطار بيروقراطي عقيم - لن يسمح بالإبداع والتميز المهني.. وبعد ست سنوات من حصولي على الدكتوراه، حصلت على إجازة بدون مرتب لمدة عام، لأختبر قدراتي وإمكاناتي لتأسيس وإدارة مؤسسة أهلية عربية.. هذه الإجازة كانت بالنسبة لي «خط الرجعة»، إذ أصبح بمقدوري العودة للمركز إذا لم أوفق في هذا العمل الجديد.. مضى العام الأول، وتلاه عام ثان وثالث ثم رابع، كنت قد «وجدت نفسي» وشعرت أن هذا «هو المشروع العلمي الطموح الذي أهواه».

وبعد ٢٢ عاماً من العمل الدؤوب والمثمر في المنطقة العربية كلها، كان ضرورياً أن أفكر ماذا بعد؟.

ومع مطلع العقد الثاني، من الألفية الجديدة، وتحديداً عام ٢٠١١ (وبعد الثورة التونسية ثم الثورة المصرية)، ثم الثورات الأخرى والاحتجاجات في المنطقة العربية، أخذت أمواج الاحتجاجات في المنطقة العربية تتلاطم، والعلاقات العربية تختلف، وقدرات العمل بنشاط - من جانب الشبكة العربية للمنظمات الأهلية - أصبحت أقل وتتراجع تدريجياً.. وبدأ لي أن المستقبل القريب، سوف يشهد تراجعاً غير مسبوق في الحريات، وفي «قدرات المجتمع المدني» خاصة أن الصراعات امتدت إلى مجلس الأمناء، والذي يضم ممثلي الدول العربية.. وإلى جانب هذا كله، تراجع التمويل العربي للمنظمة.. تقدمت باستقالتي مع مطلع عام ٢٠١٥، وسبقها الانتهاء من جانبي من كل مشروعات الشبكة العربية، وكذلك إصدار أهم كتبي بعنوان «خريطة المنظمات الأهلية العربية ٢٠٠٠ - ٢٠١٥»، وهو ما اعتبرته نتويجاً لكل أعمالتي السابقة.. ولم يوافق ويوقع عليها الأمير طلال بن عبد العزيز، رئيس مجلس الأمناء إلا بعد مرور ثمانية شهور.

ومنذ الأول من يناير عام ٢٠١٦، وأنا أعمل بوضع استشاري، ولفترة محدودة،

سعيدة جداً بالقرار الحاسم للاستقالة، وأكثر سعادة بالتوقيت.. الحريات تتراجع، والقيود تتعاضد، والخلافات تتعمق، وبالطبع ضاقت مساحة المجتمع المدني ولا محل لمنظمة عربية تقود العمل الأهلي.. فالعمل الأهلي ذاته يتراجع في كل مكان.. وكانت خبرة جميلة، مرة أخرى، لاتخاذ القرار في اللحظة المناسبة.



## «ولا تسوى دموع.. وسفر ورجوع.. ولا تحلى الدنيا إلا بناسها»

عنوان هذه الصفحة، مقتبس من إحدى أغاني مدحت صالح، الفنان الجميل الذي أحبه كثيراً.. هو مقطع واحد فقط، أشعر كأنني كتبتة لنفسي، ليحدد مساري في الحياة.. لم يكن بين أوليائي على وجه الاطلاق، السفر خارج مصر للعمل، بشكل دائم أو مؤقت.. أسافر فقط لأتعلم، وأشاهد حياة مختلفة، وأعرف وأصادق ناساً آخرين، لكن «إطاري المرجعي» هو مصر، وطني وأهلي.. سافر إخوتي للخارج فترات طويلة، وتوفيت أمي رحمها الله، وأنا متمسكة بأرضي وبلدي وأهل مصر.. سافر زملاء وأصدقاء كثيرون إلى دول الخليج في عقود عمل طويلة، أو سافروا خارج المنطقة العربية، وأنا أتشبت ببيتي ووطني.. لم يكن بين اهتماماتي، تراكم الحساب البنكي، واكتفيت بما تتوافق حوله «بالستر»، وكان لدي إيمان عميق بأن عملي وجهدي في مصر، سوف يكون في يوم من الأيام «مصدراً كافياً لعائد كريم».. كان تفاعلي مع الجماعة الأكاديمية في مصر، والنجاح التدريجي، وصناعة «اسم» لي داخل بلدي، أهم من مال العالم.. وكانت قناعاتي هي «ولا تحلى الدنيا إلا بناسها» - كل الناس - «الوحش والحو»، الفقير والغني، المتعلم والجاهل، النساء والرجال.. وتكون لدي رصيد هائل من الثروة البشرية، ومن الثروة العلمية، ومن الخبرات المتراكمة.. وحين أحببت وتزوجت من «الطيب»، استخدمت نفس تعبيراتي في رفض مغادرة مصر «لن أكون مواطناً من الدرجة الثانية».. أسافر وأسافر وأعود، ويمتلئ قلبي بالفرح حين تهبط الطائرة على أرضي التي أمتلكها.. أرض مصر.

فعلماً كلمات الأغنية التي غناها مدحت صالح من أكثر من عشرين عاماً تعبر عن قناعتني.. «ولا تسوى دموع وسفر ورجوع ولا تحلى الدنيا إلا بناسها».. ومهما قيل عن التراجع القيمي في مصر بعد ثورة يناير ٢٠١١، ومهما قيل أيضاً عن تعقيدات الحياة الاقتصادية والسياسية فيها هذه اللحظة، ما زلت أحتفظ بفرحتي حين أعود من السفر، ويقول كابتن الطائرة «وصلنا بسلام إلى مصر».



## «أن تشعر بالاستغناء»

ما أجمل الشعور بالاستغناء، خاصة إذا كنت امرأة ولدي استقلالية، وحرية الاختيار، ودائرة واسعة من الأصدقاء والأصدقاء، قائمة علي التقدير والاحترام.. شعور جميل لازمني وأدركته تدريجياً منذ كنت طفلة ثم في مرحلة الشباب.. أعتمد على نفسي فقط في استذكار دروسي، أذهب مع أختي الحبيبة سميحة لشراء احتياجاتي، أذهب بنفسني لإصلاح سيارتي، وأقف إلى جانبها.. لم تعرف «الواسطة» طريقها إليّ، وقد كانت قائمة وبقوة، ولستها حين تخرجت في الجامعة.. أعتمد على جهودي فقط وكفاتي في كل عمل.. لا أذكر مرة واحدة بحثت عن «واسطة» لكي أعمل.. تدريجياً أصبحت في حياتي شخصيات مهمة جداً، قادرة على حل أي مشكلة لي، أو تلبية مطلبي سواء خاصاً أو عاماً، ولكنني أحمد الله أن «الشعور بالاستغناء» كان حاضراً معي وبقوة.. ولا أطلب غير للضعفاء والمظلومين.

الشعور بالاستغناء، ليس أنانية، وليس حب الذات، وليس استغناء عن حب الآخرين أو تنازلاً عن الصداقة والمودة، وليس امتناعاً عن العطاء ومساعدة الآخرين، ولكنه قناعة ورضا وإيمان بالله سبحانه وتعالى، وهو أيضاً شعور بالثقة في الذات، والثقة في أن الجهد والكفاح سيصلان بك عبر السنوات، إلى ما تريده وما تصبو إليه.. إذا استغنيت عن المنصب سوف يأتي إليك ما هو أفضل منه، وإذا استغنيت عن المال سوف يعطيك الله أكثر مما كنت تتوقع، وإذا استغنيت عن سؤال الآخرين - أصحاب السلطة والنفوذ - سيأتون إليك هم، وسيسعون إلى ودك وصداقتك.. هو طريق للسعادة بلا شك.. وهو منهج حياة للأقوياء فقط.

## « في دمشق.. مع بشار الأسد وحرمه.. وصباح فخري »



أعشق سوريا، أحب السوريين الذين يبادلون كل مصري بالحب والكرم، أشعر بفرحة حين يكون لدي مهام عمل في سوريا، ولي صداقات كثيرة وعميقة، نتيجة ترددي المتكرر على سوريا .. وبقدر الحب للبلد وناسها، بقدر مشاعر الألم المتراكم حزناً على أوضاع سوريا الغالية، في اللحظة الحالية.. العنف والاقتيال والتدمير في كل مكان، والملايين من النازحين إلى البلاد المجاورة، وأوضاع المهاجرين المؤلمة خارج المنطقة العربية.. أحببت دمشق، مساجدها وشوارعها وحواريها وأسواقها.. أحببت الناس والمطاعم والغناء.. في إحدى المرات التي ذهبت فيها إلى دمشق (وأعتقد أنها كانت عام ٢٠٠٥) دعوت زوجي ليسافر معي عدة أيام، تلبية لدعوة رسمية من جهات عليا، لكي ألقى محاضرة عامة، عن طبيعة بناء شراكة جديدة بين الجمعيات الأهلية والحكومة.. وسافرنا في السابع من نوفمبر (ليلة عيد ميلاد زوجي)، لأجد ملصقات كبيرة، تعلن عن حفل الفنان المتميز - الذي نعشقه - في أحد الفنادق الكبرى، وكان محل إقامتنا في دمشق.. وفي لحظة وصولي للفندق،



طلبت شراء تذاكر لحضور حفل الفنان صباح فخري، ولكن كان الاعتذار بأدب شديد لعدم وجود تذاكر، أو حتى أماكن يتم فيها وضع مقاعد إضافية.

أحسست بالضيق الشديد، ولكن كنت متفهمة تماماً ماذا يعني حفل صباح فخري، والذي يسعى إليه أهل سوريا والعرب من كل مكان.. ثم في اليوم التالي (٨ نوفمبر) ذهبت إلى مكان المحاضرة، وأذهلني كل هذا العدد من الحضور، والوزراء، والشخصيات العامة.. وتحيرت من عدد ونوعية قوات الأمن التي تلتف حول المكان، وأخبرني أحد الأصدقاء أن هذا يعني مشاركة الرئاسة.. **وبالفعل حضر الرئيس بشار الأسد وزوجته، وتم تقديمي رسمياً لهما.** ثم كانت محاضرتي، التي كنت قد أعدتها بشكل جيد واحترافي، واعتمدت على «استنطاق البيانات» التي تضمنها المسح الميداني الشامل - والأول - للجمعيات في سوريا والذي أشرفت على تنفيذه.. تحدثت عن الفرص والإمكانات التي يحملها القطاع الأهلي في سوريا الشقيقة، إلا أننا بحاجة إلى بناء قدرات هذا القطاع، ليتبنى التوجه التتموي بدلاً من الخيري، وكذلك في حاجة إلى تشريع جديد، وخطوات لبناء الثقة، فالعمل الخيري التقليدي، كان هو المهيمن على الحالة السورية.

المهم أن المحاضرة وما لحقها من مناقشات كانت موفقة للغاية، واتسمت بالعلمية والموضوعية.. وبعد انتهاء المحاضرة دعاني الرئيس وحرمه لتناول القهوة في القاعة الملحقة، وكان الحديث إيجابياً؛ يستهدف تطوير القطاع الأهلي.. ثم وجهها لي الدعوة للعشاء.. ذكرت أنني تمنيت من كل قلبي أن أحضر حفل الفنان صباح فخري، ولكن للأسف انتهت كل التذاكر.. في كلمة مقتضبة قالت السيدة حرم الرئيس بشار «حنشوف».

**ثم عدنا إلى الفندق - زوجي وأنا - لأجد رسالة مكتوبة رقيقة ومعها تذكرتان للحفل..** وكانت المقاعد في أول مائدة أمام صباح فخري.. الرسالة تقول «تحية لمصر والمصريين».. وكانت أجمل تحية، وليلة من ليالي العمر التي سهرنا فيها

حتى أذان الفجر، نستمتع بصوت وأداء متميز للفنان صباح فخري «انت أحلى الناس في نظري جل من سواك يا عمري».. ولا أنسى «إن تجودي فصليني .. أسوة بالعاشقين» الله عليك صباح فخري حين تكرر عشرات المرات «عيشة لا حب فيها جدول لا ماء فيه».. ولك أن تتخيل النهر الجميل بلا ماء، هل تعتبره نهراً؟ هكذا هي الحياة من دون حب.

## «ليبيا القذافي .. وأنا»

وأنا في مطلع العشرينيات من عمري، ركبت الطائرة لأول مرة في حياتي، وأيضاً في أول مهمة عمل لي خارج مصر، سافرت إلى ليبيا لتمثيل الإذاعة المصرية، في مؤتمر دعا إليه اتحاد الإذاعات العربية؛ وكان يناقش «التكامل والتنسيق بين الإعلام والثقافة»، وبالمناسبة فهي قضية دائمة ومستمرة حتى اللحظة الحالية، ولم يحدث واقعياً ما يشير إلى أننا نحن العرب قد نجحنا في تحقيق التكامل بين الثقافة والإعلام.. بل على العكس اتسعت الفجوة كثيراً مع تزايد واتساع الفضائيات ووسائل التواصل الاجتماعي.. لقد شاركت مؤخراً في مؤتمر بدولة الإمارات العربية المتحدة، يناقش نفس الموضوع، وأشرت إلى مؤتمر ليبيا في السبعينيات ونفس المحاور، ولكن تطرح الآن بمفردات خطاب العولة.. على مدى عقود ثلاثة، تطرح المؤتمرات العربية - في أغلبها - نفس القضايا، وأحياناً يشارك نفس الحضور ولا تغيير.

**وحين كنت في الطائرة إلى ليبيا، أصابني الخوف والقلق فأنا في السماء، في «قطعة حديدية»، ووحدني للمرة الأولى، وكل احتمالات مصيري واردة.. ظللت أتمتم بآيات من القرآن الكريم، ويبدو أنني كنت أرتعش خوفاً، تحدثت إليّ الشخص الذي يجلس بجواري، يهدئني ويحكي معي، ثم علمت أنه دبلوماسي بوزارة الخارجية (رحمة الله عليه) ويمثل الوزارة في المؤتمر، وأنه من الدفوعات الأولى لكلية الاقتصاد والعلوم السياسية.. حين وصلنا إلى طرابلس، كان التوجس والخوف، قد ذهباً بعيداً عني، وبدأت صداقة جميلة بيني وهذا الدبلوماسي.. حذرني المستشار عمر، وهذا اسمه، من الحديث في السياسة، وأن جميع الغرف - على الأرجح - يتم**

فيها التتصت.. في ليلة الوصول كان استقبال القذافي لنا في مقر إقامته، حيث كان العشاء للضيوف، وحيث شاهدنا عروضاً فنية وشعبية جميلة.. وبالطبع كان ذلك داخل الخيمة الكبيرة، التي يفضلها القذافي، وكان يصطحبها معه، بعد ذلك في كل مكان.. يتحدث ويتحدث، دون ربط الجمل والأفكار، ويصعب أن تتابع وتفهم ما يقوله، ولا تملك غير الابتسام.. وفي ذلك التوقيت، ومبكراً في السبعينيات، قلت ما هذا الجنون؟

في السبعينيات كانت مدينة طرابلس جميلة، وشواطئها نظيفة وجذابة، وشوارعها تعج بالسيارات الفاخرة، وأسواقها تكتظ بالسلع، وتكاد لا تلمح أي فقير.. والعكس تماماً كان هو السائد بعد حوالي ٢٠ سنة من زيارتي الأولى.. تقادمت البنية الرئيسية وتقادمت المباني، ولا توجد فنادق فاخرة، السيارات قديمة، والنفايات والروائح القذرة تهاجمك، تلحظ الفقر والفقراء في كل مكان.. تحولت المدينة إلى قرية.. التلفزيون الأبيض والأسود على حاله، وحين تجولت مع أحد أصدقائي من السفارة المصرية بسيارته، انتابني الحزن والاكتئاب على أحوال البلد وأهلها.. زيارتي الأولى كانت تبشر أنك في بلد جميل وغني وقادر على تحقيق تقدمه.. زيارتي الثانية كان طابعها الحسرة على ضياع البلد وضياع أموالها ومواردها.. العنصر المشترك الوحيد الذي يربط بين الزيارتين.. كان القذافي.

## «حين تتجمد الأنهار»

كنت في هولندا في مهمة عمل، وتحديدًا في أمستردام، وفي أحد الاجتماعات التحضيرية للمؤتمر العالمي للتطوع، والذي عقد في الألفية الثالثة، توقعت قبل سفري برداً قارساً، وعدة درجات تحت الصفر، ولكن عند هبوط الطائرة كانت الأرض تبدو بيضاء تماماً، ولم أكن معتادة على السفر في هذا التوقيت، وفي مثل هذا المناخ.

وحين وصلت واستقليت إحدى سيارات الأجرة، كانت المرة الأولى لي التي أشاهد فيها أنهاراً متجمدة تماماً، وأشجاراً بيضاء متجمدة على ضفتي النهر، وأحياناً المراكب واليخوت تقف في النهر، لينصهر الجميع بالثلج واللون الأبيض. كنت قد سافرت من قبل عدة مرات إلى هولندا، بل كان لي فرصة الحصول علي منحة تدريبية في اخراج البرامج الإعلامية، ومن ثم أقمت بشكل دائم لعدة شهور، إلا أنني لم يسبق لي رؤية هذا المشهد، والذي بدا لي كلوحة فنية مرسومة بكل دقة.

كانت اللجنة الدولية التحضيرية التي تعد للمؤتمر العالمي للتطوع، تضم حوالي ١٢ عضواً من كل أقاليم العالم، وكنت أنا ممثل المنطقة العربية.. وهولندا في ذلك العام ٢٠٠١، كانت تحتل المرتبة الأولى عالمياً في العمل التطوعي، ومن ثم كانت هي الدولة التي تستضيف المؤتمر، وكنا نتوقع ما يقرب من ٢٠٠٠ مشارك من كل دول العالم.

كان علينا في هذا المؤتمر الاتفاق حول أجندة العمل والمتحدثين والموضوعات، مع الأخذ في الاعتبار التوازنات بين دول ومناطق العالم.

الجو خارج مقر الاجتماع قارس، والأنهار مجمدة، إلا أنني أذكر أن أجواء هذا

الاجتماع كانت ساخنة للغاية، وحدثت خلافات رئيسية بين مجموعتين كل منهما تبني وجهة نظر.. المجموعة الأولى أرادت فرض وجهة النظر الغربية عن مفهوم التطوع على الآخرين في الدول النامية، حيث يرون أن العمل التطوعي قد يكون مدفوع الأجر، (ولكن بقدر يقل عن قيمته الحقيقية).. المجموعة الثانية وأنا كنت منهم كنا نعتقد أن العمل التطوعي هو تطوع بالوقت والجهد، أو الاثنين معاً، دون حافز مادي.. وفي حقيقة الأمر كنا نخشى من زحف العولة أن تفرغ التطوع من محتواه.. وهذا ما حدث تدريجياً فيما بعد، في مصر والمنطقة العربية.

وبعد هذه الخلافات كان التوافق في ذلك التوقيت على عدم ذكر «المقابل المادي للتطوع».. وأصدرنا وثيقة مهمة، بعد عقد هذا الاجتماع بشهور، وكانت جاهزة للتوزيع في المؤتمر العالمي للتطوع، في أمستردام.

غادرت هذا الاجتماع الذي تم عقده في أمستردام وتركت الأنهار مجمدة، لأشارك بعدها بسنوات عشر في ألمانيا (وتحديداً في بون) للإعداد للمؤتمر العالمي الثاني للتطوع (٢٠١١)، وهو يستهدف تقييم السنوات العشر السابقة، والتي دعت فيها الأمم المتحدة دول العالم، لتفعيل التطوع..



ومرة أخرى - وبعد ١٠ سنوات - يلعب القدر دوره لأسافر وأشارك في هذا الاجتماع، في فصل الشتاء، وفي مناخ قارس.. ولكن الأنهار لم تكن مجمدة كما كان الحال في هولندا قبلها بعشر سنوات، وإنما كان البشر هم «المجمدين» يعملون كأنهم «آلات ميكانيكية» بلا روح وبلا بسمات ولا مشاعر، هكذا بدت لي الغالبية من البشر في ألمانيا، فقلت في نفسي ما أجمل الأنهار المجمدة

والثلوج إذا كانت الوجوه باسمه والمشاعر دافئة، والمناقشات ساخنة.

## «فسحة في ٢٥ يناير ٢٠١١»

ويا لها من «فسحة» لا يمكن نسيانها.. فقد قررنا - زوجي وأنا - أن نقضي إجازة طويلة في نهاية الأسبوع تبدأ من يوم عيد الشرطة في ٢٥ يناير إلى السبت، أي حوالي ثلاثة أيام، للراحة والاستجمام في العين السخنة، حيث نمتلك شاليهاً صغيراً في إحدى القرى السياحية.

كنا نعلم مسبقاً بدعوات الشباب، عبر شبكة التواصل الاجتماعي، للتجمع في ميدان التحرير، لم نهتم كثيراً، فالرحلة من المعادي - حيث نقطن - إلى العين السخنة، تستغرق حوالي الساعة وربع، وهي في اتجاه بعيد عن ميدان التحرير.. وهناك، وفي المساء، علمنا أن الحشود هائلة وليس مجرد عشرات أو مئات، وحين حاولنا المتابعة على التلفزيون المصري طالعنا السيد حبيب العادلي وزير الداخلية، يتحدث مع أ. مفيد فوزي، حديث احتفالي عادي للغاية لا يشير إلى أي احتمالات «غير عادية».

ولكن ودون الدخول في تفاصيل نعرفها جميعاً، تطورت الأحداث وتزايد عدد الشباب المتظاهرين في ميدان التحرير، وشاشات التلفزيون المصري تحكي قصة مختلفة تماماً، عما تقوله الفضائيات الأخرى خاصة قناة الجزيرة.. وبلغ التوتر أقصاه بقطع شبكات الاتصال على الهواتف المحمولة، وسقوط أول شهيد في مدينة السويس (ونحن نبعد عنها بحوالي ٤٠ كيلو متراً) ومواجهات الشرطة مع المتظاهرين.

وفي كل ساعة يتزايد قلق المجموعات التي ذهبت لتمضية إجازة نهاية الأسبوع بدءاً من ٢٥ يناير، وقرر البعض منا العودة السريعة للقاهرة، وبعد تحركنا علمنا

أن الطريق إلى القاهرة خطر للغاية وبه مجموعات مسلحة، وأحداث سرقات، واختفاء تام للشرطة، إلى جانب عمليات سلب ونهب بعض المحال الكبرى.. وعدنا بعد نصف ساعة من الطريق إلى العين السخنة مرة أخرى. وهناك لم يكن معنا ومع الأسر الأخرى أي طعام، والمطعم ليس به مخزون لأن الطريق إلى السويس - وهي مصدر تزويدهم بالأطعمة - مغلق بثوار وبلطجية وليس آمناً بالمرّة، إلي جانب إغلاق جميع المحلات.

**وهناك تقاسمنا اللقمة وتقاسمنا الأخبار، والتي كانت تتصاعد في كل لحظة لتندّر أن الدولة تنهار.. في الليلة الرابعة لنا في العين السخنة، حوالي الساعة العاشرة مساءً استمعنا إلى طلقات نارية قريبة جداً منا، وكان «الفرع العظيم» حين شاهدنا من خلف الزجاج مجموعة من الأعراب الملتئمين الذين اقتحموا القرية.. وبعد حوالي نصف ساعة، شاهدنا مدير القرية يجلس معهم حول حمام السباحة بهدوء، ويتحدث.. علمنا في اليوم التالي أنه طلب منهم حراسة القرية من الخارج، وسلمهم مبلغاً مالياً ضخماً مقابل هذه المهمة «الوهمية» وكبديل عن تهديد الأسر التي ما زالت في «فسحة ٢٥ يناير»، وسرقتهم.**

**وبعد خمسة أيام كاملة، كان لابد من العودة إلى القاهرة، تحركت المجموعة الأولى من السيارات بأمان وصولاً إلى المعادي، ثم تحركت المجموعة الثانية - وكنا منهم - ومعنا أحد أفراد أمن القرية.. وحين وصلنا إلى القاهرة، كان كل شيء قد اختلف وتغير، محلات محترقة، أقسام شرطة مدمرة، وجوه باهتة خائفة، وأخرى منفعة ومتحمسة، ومجموعات حراسة تغلق كل شارع، ولا تعلم من منهم المواطن ومن منهم الحرامي أو البلطجي.. ولا أمن بالمرّة واختفاء تام لرجال الشرطة.**

**حين دخلنا إلى منزلنا، وأغلقتنا بابه بإحكام، حمدنا الله على وصولنا من هذه «الفسحة» المتميزة.. وكنا ندرك أن مصر لن تكون بعد ذلك مصر التي نعرفها.**



## «ما بين الصداقة والحب»

هما ركنان أساسيان في حياتي، وفي حياة الكثيرين منا، وحين أتحدث عن الصداقة، سواء للإناث أو الذكور، فأنا أتحدث عن الإخلاص وعن المودة المتبادلة وعن الصدق في المشاعر والصدق في المواقف.. أتحدث عن صديق أو صديقة، يستمع إليّ واستمع إليه، ألجأ إليه أو يلجأ إليّ إذا احتاج إلى مساندة أو مشورة، يقف إلى جانبي حين أحزن أو يصيبني مكروه، وقد يأخذ بيدي لأطفو على سطح الحياة مرة أخرى.

إن الحب إذا كان يستند على الصداقة هذه، يتسم بجمال خاص واستمرارية، ولا يذهب بعيداً عنا «يتغذى» دائماً هذا الحب من صداقة وثقة متبادلة ومودة ومساندة ورغبة كل طرف في إسعاد الطرف الآخر.. هكذا كان حبي لزوجي - رحمة الله عليه - وهكذا كانت صداقتي قوية مستمرة، تشعرني إنني لست وحدي في الحياة، وتشعرني أن «الدنيا بخير» كما يقولون.. أكاد أنسي كل من أساء إليّ، وكل من أخطأ في حقي، وكل من «غلف» مشاعره المزيفة لي يوماً ما، واعتقدت أنه / أو أنها الصديق والحبيب.. أحاول أن أطوي الصفحة التي انخدعت بها، وأفتح صفحة جديدة، لتؤكد لي الأيام أن ما هو «حقيقي وصادق» يستمر، بينما المصالح والادعاءات المزيفة، هي زائلة، وفي الأغلب نكتشفها بسرعة.

مع انشغالات الأصدقاء، واهتمام كل منهم بمساره، أو ضغوط الحياة، قد تتباعد اللقاءات، ولكن محادثة هاتفية واحدة، تأتي إليك، تجعلك سعيداً للغاية، ولا تشعر بالفراق، وإنما تتواصل تلقائياً مع هؤلاء الأصدقاء، وكأنك كنت معهم دائماً، وكانوا معك.

اعتقدنا ونحن في مطلع العمر، فيما كانت تقوله الفنانة الجميلة شادية، «ده القلب يحب مرة .. ما يحبش مرتين»، ثم اكتشف البعض - وأنا منهم - أن «القلب يحب مرة واثنين وعشرة».. وهنا فإن التوقيت الزمني ونضج الشخصية يلعبان الدور الرئيسي في تحديد ما هو الحب الحقيقي أو «الحب الكبير» في حياتك، وحينئذ فإن تذكر عدد المرات التي تصورت فيها «أنك في حالة حب» سوف يفيدك جداً في صياغة توقيت هذا الحب، وما ارتبط به من أسباب أو أوهام.

علي أي الأحوال، قناعتي الشخصية، أن الإنسان طالما يعيش فهو يحب وبمستويات متعددة، ويمتد حبه إلى كل من حوله.. الحياة بلا حب وبلا مشاعر مثل النهر «لا ماء فيه».

## «لا ندم»

كلنا نرتكب أخطاء، والغالبية منا نتندم.. وكلنا كانت لنا اختيارات وقرارات، وقد نتندم على بعضها.. من الأخطاء نتعلم، ومن الاختيارات التي نتندم عليها، نحاول أن نتعلم منها.. أتذكر «بابا شارو» رائد الإذاعة الموهوب، حين كان يدرّبنا في بداية عملنا بالإذاعة، قال جملة واحدة فقط ذات مغزى، وهي: «كل الأخطاء يمكن أن نتداركها ونصلحها إلا الخطأ على الهواء». أهم ما في هذه الجملة أنه كان يسعى لأن نكون محترفين، ونتوخى الدقة البالغة حين نكون على الهواء، فالخطأ هنا لا يمكن إصلاحه بينما الخطأ بكلمة أو موقف إزاء شخص معين، يمكن أن نعتذر عنه، وهو ما نطلق عليه الآن «ثقافة الاعتذار».. كما أن اتخاذ قرار خاطئ أو حدوث اختيار خاطئ في حياتنا الشخصية أو المهنية، قد يمكننا التعامل معه، ومؤكّد سوف نتعلم منه الكثير من الدروس.

**ماذا لو سألت نفسك هل تتدم على مسار حياتك ككل؟ وماذا لو عادت بك**

**الأيام إلى مطلع عمرك، هل كنت ستتحذ مساراً مختلفاً؟**

كثيراً ما سألت نفسي هذا السؤال، وبمنتهى الصدق أقول لو عاد بي الزمان للوراء، لكنني اتخذت نفس الخيارات ونفس المسارات.. فقد كانت دراستي الجامعية في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، هي ما تمنيتّه وسعيت إليه وحققته، وكانت سنوات عملي بالإذاعة المصرية رغم تعبيرتي عنها «بالطم الزائف» ورغم استقالاتي بعد ثماني سنوات، من أخصب سنوات عمري.. فقد أحببت المهنة واستمتعت بها، واكتسبت خبرات كثيرة بنيت عليها فيما بعد، وتعلمت منها القدرة على التواصل مع مختلف البشر - من القمة إلى القاع - والقدرة على اجتذاب المستمع، والقدرة

على المواجهة.. حزنت بعد استقالتي رغم أنها كانت اختياراً، ولكنني لم أندم، شعرت براحة المحب حين يترك حبيبته لأنها لا تبادله الحب، وابتعدت حتى عن المكان، ولم أمر في طريق ماسبيرو لمدة عام؛ حتى نسيته.

لم أندم على اختياري للزواج بالمرّة من رجل يكبرني بسنوات، لأنني أحببته واحترمته وبادلني هذا الحب والاحترام، وكان الصديق والحبيب.. ولماذا الندم وقد كان مصدر الأمان والسكينة؟ ولم أندم أيضاً على بعض الصداقات المزيفة، فقد كانت تقديراتي لهم خاطئة، وتعلمت ولكن بعد أن تأملت.. وأعتقد أيضاً أنني لم أندم على تسببي الحرج لأي إنسان، أو توجيه نقد عنيف لأحد زملاء حين يخطئ في العمل، والسبب أنني حين أتجاوز قليلاً، أتراجع وأعتذر بشجاعة وأوضح أنني أستهدف الإصلاح.. إذا عاد الزمان، سوف أتخذ نفس الاختيارات، فهي الأقرب إلى نفسي وإلى عقلي، ولا أندم على أي قرار مصيري اتخذته، فقد كان كل قرار يقود إلى آخر أفضل منه.. لا لندم ولكن رضاء وقناعة تامة أن الله قد وفقني، وأن ما هو «مر» كان إلى جانبه دائماً ما هو «حلو».

## «فيها حاجة حلوة»

أحب الشمس في لحظات غروبها، وأحب حياتي أيضاً في لحظات غروبها، أشعر بالرضا وأحمد الله، أن الأيام والسنوات مرت، بكل ما فيها من آلام وأحزان وأفراح ونجاحات، لكن ما زلت أشعر وأحب، وحولي من يحبوني بصدق.. وما زلت أرى مع كل إشراقة شمس أمل جديد، وعطاء جديد يشعرنني بالفرحة.. وما زلت أفخر أن مبادئ وأخلاقياتي لم تتلوث والحمد لله، وضميري مستيقظ يراقبني في كل كلمة وكل فعل.

**أحب حياتي في وطني، وما زلت أرى «فيها حاجة حلوة»**، رغم التغيرات القيمة، رغم الفوضى، رغم ضيق العيش، رغم الإهمال و.. ، لكن «فيها حاجة حلوة».. وفي كل يوم جديد أقول سوف يكون أحلي من الأمس. انظر ورأيي أجد «جبالاً شاهقة» نجحت في تسلقها، أنظر وأجد العرق يتصبب في كل طريق كنت سائرة فيه.. عبرت بسلام وتجاوزت «وعورة الطريق» والحفر المتتالية، ثم أصعد الجبال الشاهقة التي حدثني عنها أستاذي في المدرسة، وتعجب من قدرتي على الصعود.. لم يكن حرف «الدال» الذي أضيف إلى اسمي، بعد حصولي على الدكتوراه في العلوم السياسية، هو مصدر الفخر لي، ولكن بدايتي في شق الطريق والتميز فيه، بعد حرف الدال كان هو الأهم.. تزوجت من أحببته، وساندته حتى «وراه الثرى»، لم أنجب ولكنني راضية والحمد لله، أعيش وحدي ولكن نادراً ما أشعر بالوحدة، القلم هو صديقي العزيز، واختي الرائعة هي الصديقة والحببية، نتشارك معاً في أمومة وليد ابنها، وتذكر بكل خير ابنا الشاب ياسر الذي رحل عن الحياة، ولكن بعد أن استمتعنا به عشرين عاماً، والحمد لله.

أستمتع بحب الأصدقاء والزملاء وهم كثيرون، وأتسامح وأنسى إساءات

البعض لي، وقاعدتي الذهبية هي «تعلم كيف تتسى.. وتعلم كيف تمحو»..  
أعترف أنني لست إنسانة مثالية، فالكمال لله وحده، لكنني ما زلت أحاول أن أغير  
نفسي إلى الأفضل، وما زلت أعدل سلوكياتي، وأعتذر بمجرد الخطأ.  
حياتي ما زلت فيها حاجة حلوة، ومصر ما زال فيها حاجة حلوة، كل واحد  
فينا لديه «حاجة حلوة»، قد يكون المال، أو السلطة أو النفوذ، أو الأولاد.. أنا ليس  
لدي كل ذلك، لكن لدي الحب ولدي الرضاء، ولدي إنجازات علمية وطلاب يشيرون  
إلى اسمي في هوامش المراجع، قد يكون ذلك هو «الحاجة الحلوة».. وهو كافٍ  
جداً والحمد لله، هم سيكملون المشوار.



## «عقدة خط الاستواء»

في طفولتي، وحين بدأنا في المدرسة التعامل مع مادة الجغرافيا ويتحدث الأستاذ عن خط الاستواء، أسأل أين هو؟ يجيب - وهو يشير إلى نموذج الكرة الأرضية - هو في هذه المنطقة يخترق الكرة ويمر عبر بلاد كثيرة، وأتعب كيف يمكن رسم خط على الأرض ذاتها وعبر العالم يحدد خط الاستواء.

**المهم أني كلما جاء الحديث عن خط الاستواء عاماً وراء عام، أفكر بنفس المنطق «الطفولي» كيف يمكن رسم «خط» يحدد المناطق الجغرافية والمناخية، إلى أن قال لي الأستاذ، وأنا في المرحلة الثانوية أنه «خط افتراضي».. ابتلعت هذا التفسير وتوقفت عن السؤال، لأن زملائي وزميلاتي، يضحكون ويقولون «تاني يا أماني.. أنت عندك عقدة خط الاستواء».**

ومرت سنوات وسنوات، وتصورت أن قضيتي انتهت مع خط الاستواء، وحاولت استيعاب فكرة إنه خط افتراضي، في مكان معين ويمتد على الخريطة. ثم حدث ما جدد «عقدة خط الاستواء» لدي، وبعد حصولي على الدكتوراه، إذ سافرت في مهمة عمل إلى نيروبي عام ١٩٨٥ للمشاركة في مؤتمر المرأة العالمي.

وبعد انتهاء المؤتمر، وتشبعي بقضايا المرأة والتنمية، والتواجد مع الآلاف من النساء، مددت اقامتي يومين، وقلت هذه فرصة للسياحة وللاستراحة في كينيا قد لا تتكرر.. وداخل شركة السياحة، التي تعمل تحت مظلة الجهة المنظمة للمؤتمر، عرفت أن أمامي اختيارات متعددة، والمدهش أنه بمجرد علمي أن هناك رحلة بعيدة نسبياً عن نيروبي - إلى خط الاستواء، تجددت عقدة الطفولة بخصوص هذا «الخط الافتراضي» كما حاول أستاذي أن يشرحه لي.. وقلت في نفسي، لن أترك هذه الفرصة تفلت مني.

وفي الوقت نفسه اخترت رحلة إلى «السفاري» لمشاهدة الغابة والحيوانات على طبيعتها، وبعد الانتهاء منها، اتجه إلى خط الاستواء في «مواجهة ساخنة» معه وجهاً لوجه.. وتحركت السيارة عدة ساعات ثم توقفت، لكي نلتقط الصور عند خط الاستواء!!

**وجدت علماً أحمر وبافطة كبيرة تقول هذا هو خط الاستواء، مجرد إشارة أو علامة تبلغ السادة الذين أرادوا القيام بهذه الرحلة، إننا نقف عند خط الاستواء..** هذه المنطقة كانت مخصصة لبيع المنتجات البيئية الإفريقية، أي منطقة تجارية، بالإضافة إلى عروض فنية تقليدية إفريقية، للموسيقى والرقص، وبالملابس الإفريقية الشهيرة.. وبعد حوالي الساعة انتهت رحلة خط الاستواء، وبدأنا نستعد للعودة إلى الفندق في نيروبي. وللإعلان عن أن «عقدتي» مع خط الاستواء، قد انتهت

وشفيت منها والحمد لله، حرصت أن أقف على الخط الوهمي أو الافتراضي، وأسفل اليافطة التي تقول هنا «خط الاستواء»، لكي يلتقط لي زملائي «مجموعة صور» وليس صورة واحدة.. فقط لتأكيد إنني شاهدت خط الاستواء، ووقفت على الخط.. شقاوة عيال.





## «هل المشاعر يمكن أن تكون ذكية؟»

حين يكون عمك عموده الفقري هو القراءة، وتكون هوايتك هي أيضاً القراءة، يختلط العمل بالهواية، ويصبح أمامك البحث عن هوايات أو اهتمامات أخرى تشغل أوقات الفراغ أو الراحة، وتشعر أن هناك تغييراً.. هذا ما أفعله من خلال مشاهدة الأفلام السينمائية، أو من خلال رياضة المشي، فهذا هو المتاح والسهل أمامي، ولكن تظل القراءة هي الأهم.

منذ سنوات - حوالي عشر سنوات - شاهدت فيلماً سينمائياً (أجنيباً بالطبع) محوره امرأة تعاني من مشكلة عدم القدرة على اختيار الأصدقاء أو اختيار الحبيب أو الزوج، لا تثق في مشاعرها واختيار المقربين لها، وتحكي للطبيب أن «مشاعرها غير ذكية»، ومن ثم تأتي اختياراتها خاطئة.

**لفت نظري هذا التعبير، المصطلح الذي كنت أعرفه هو «الذكاء الاجتماعي» وليس «ذكاء المشاعر»، وكانت قناعتني أن كل إنسان يستطيع بعقله أولاً ثم بقلبه ثانياً، أن يقترب ممن يجب.. تحدث معي ابن شقيقتي وليد - وهو ابن لي - في هذا الموضوع، وأهداني كتاباً باللغة الإنجليزية - كان أفضل المبيعات في الولايات المتحدة الأمريكية - عن علم النفس في العلاقات الاجتماعية.. قال لي - رغم أن تخصصه الهندسة الميكانيكية - أن أحدث اهتمامات علم النفس تركز على تطوير العلاقات الإنسانية وعلى قدرات التواصل.. الكتاب الذي أهداني إياه يحمل عنوان «الذكاء الاجتماعي»، صدر عام ٢٠٠٦، ويحمل عنواناً آخر جانبياً في أسفل الغلاف «ذكاء المشاعر».**

بشكل شخصي أنا أفضل تعبير الذكاء الاجتماعي، وأظن أن أحد مكوناتها

هو ذكاء المشاعر.. الكاتب وهو «دانييل جولمان» كان يسعى إلي وصف عقولنا وما يحدث فيها حين نتواصل مع آخرين، فالعلاقات تمتلك القوة أو السلطة لتؤثر على تراكم خبرات البشر، وعلى صحتهم النفسية والجسمانية.. وبدأت أقرأ التفاصيل لأعرف أكثر عن الذكاء الاجتماعي، وما يشار إليه في ذكاء المشاعر» .. ترى هل اقتراب الشخص بذكاء ممن قد يحققون له مصالحه يمكن أن تصفه بالذكاء، ومهما كانت مشاعره سلبية أو إيجابية تجاههم؟ عن نفسي ومن جانبي أتبع قاعدة «استفتي قلبك»، وأنجح في أحيان كثيرة وأخطأ في بعض الأحيان.. المهم إن مصطلح «الذكاء الاجتماعي» تم استخدامه لأول مرة عام ١٩٢٠، أي منذ ما يقرب من مائة عام، وكان يتحدث عن تفاعل العلاقات الإنسانية وتفاعل وتواصل البشر معاً، باعتباره أحد أسباب النجاح، وخاصة في قيادة المجموعات. آخرون في السنوات التالية، اعتبروا أن الذكاء الاجتماعي هو جزء من ذكاء الشخصية ذاتها وتراكمت الإضافات.

**المهم أني اكتشفت من خلال هذا الكتاب الممتاز عن «الذكاء الاجتماعي» و«الذكاء الشعوري»، الكثير من الكلام والجدل، والكثير من الفوارق بين الأشخاص، خاصة بين النساء والرجال.**

في الحقيقة إن هذا الكتاب الذي قرأته منذ سنوات، لكي يحقق لي مساحة من الحرية، بعيداً عن التركيز الشديد في قراءة وكتابة البحوث العلمية المتخصصة، أشعل أفكاري - بدلاً من تسليتي - ولم يسهم في تحقيق الاسترخاء الذي «كنت أنشده». إلا أنني استفدت منه كثيراً، وطور الكثير من أفكاري ثم أيضاً وبصراحة - بعض سلوكياتي.

أصبحت قناعاتي حول هذا الموضوع تدور حول عدة قواعد أولها أن الذكاء الاجتماعي - وإلى جانبه ذكاء المشاعر - هو ركن رئيسي في تفسير نجاح بعض الأشخاص، وهو يعكس القدرة على التواصل مع الآخرين، وتفهمهم» والقدرة

على الاستماع والاهتمام بهم. ثاني هذه القواعد بالنسبة لي هي الصدق في العلاقة وفي بناء شبكة العلاقات الاجتماعية. ثالثها هو ذكاء المشاعر، فالمشاعر الذكية هي القادرة على استشعار الصدق والحب من الآخرين (والتي تذهب في مضمونها إلى قاعدة استفتي قلبك). رابع هذه القواعد أن الذكاء الاجتماعي وإن كان يفسر جزئياً نجاح شخص ما في حياته، فإن هناك الكثير من البشر المتفوقين والناجحين لا تتوافر لديهم قدرات الذكاء الاجتماعي. ويرتبط بذلك القاعدة الخامسة وهي تذهب إلى أن اعتماد شخص ما على قدراته في التواصل الاجتماعي دون كفاءة أو قدرات أخرى يمتلكها، قد تجعله يبدو «براقاً» بعض الوقت وليس طوال الوقت، وهي لا تعني النجاح.. أما القاعدة السادسة التي تحدد الذكاء الاجتماعي فهي القدرة على التعبير عن النفس وعن الرأي بوضوح وبهدوء، وانتقاء الألفاظ والمصطلحات حتى لا تؤذي مشاعر الآخرين أو تجرحهم.. وأخيراً فإن النفاق الاجتماعي والتملق، مهما ارتضى به البعض، ومهما اعتبروه ذكاء اجتماعي إلا أنه لا يتضمن «الذكاء الشعوري» أو ذكاء المشاعر، وتدرجياً يبتعد الناس عنك وتفقد مصداقيتك.. والكتاب يعبر عن ذلك «بقصر النظر».

عشر سنوات تقريباً مرت على قراءاتي لهذا الكتاب الذي يحمل عنوان «الذكاء الاجتماعي - ذكاء المشاعر»، اختلفت واتفقت معه، لكن تبقى بعض القواعد لا خلاف عليها، تساعد في تعديل السلوك.. وهذا يتوقف بالطبع على رغبتك وإرادتك في تطوير نفسك والارتقاء بها.. هل يمكن أن نؤسس «قرية للمشاعر الذكية» نتعلم فيها منهج بناء المشاعر الذكية؟ ويمكن أن يكون موقعها بجوار «القرية الذكية» خاصة أن التطور التكنولوجي - كما أراه - أسهم في «غيباء المشاعر»

## « لا تقترب.. احتفظ بمساحة »

من اللحظة الأولى التي عملت فيها بالإذاعة المصرية، بدأت التعامل من خلال برامجي، مع شخصيات متنوعة من النخبة المصرية، من أساتذة الجامعات ورؤسائها ووزراء وكتاب ومفكرين.. ولأنني كنت أستعد بشكل جيد لبرنامجي سواء من حيث الموضوع أو الشخصيات التي أستضيفها، اكتشفت بشكل تدريجي ومتصاعد، أن البعض لا يستحق المكانة المرموقة التي وصل إليها.. أما إنه لا يجيد التعبير عن نفسه، أو يتسم بالاستهتار في التعامل مع الموضوع، أو لا يحترم المواعيد، أو أن سلوكه الشخصي يتناقض مع مكانته.

وفي المرحلة التالية التي عملت فيها بالبحث العلمي أو التدريس أو من خلال انخراطي في الحياة العامة، اقتربت من «النخبة» - كما تم التعبير عنها - بشكل أكثر عمقاً.. تعمقت انطباعاتي الأولى التي كشفت عن أن كثيراً - وليس القلة - من النجوم الساطعة في الحياة العامة، لا تستحق بالفعل المكانة التي وصلت إليها، وأن كثيراً من هذه النجوم «زائفة» و«خادعة للبصر».

في الحقيقة أول ما لفت انتباهي كان الفجوة الواسعة، بين ما يقولونه وبين الواقع، فجوة بين المبادئ المعلنة - وهي بمثابة رسائل إعلانية للتسويق - وبين حقيقة سلوكهم في الواقع. وولفت الاهتمام كل هذا «التملق والنفاق» من جانبهم لأصحاب السلطة، وتتغير الأنظمة ويتغير أصحاب السلطة، لكنهم ما زالوا على حالهم «يغازلون» من يجلس على المقاعد الوثيرة.. أتعجب كثيراً - وغيري - من هذا السلوك، هم يملكون العقل والفكر والمنطق، ترى ما المكاسب التي ستتحقق لهم خاصة أنهم في الأغلب لديهم المال.. لا أعلم.

آخرون من هذه النجوم الزائفة، يسعون فقط للشهرة والمال، يعشقون الأضواء التي صنعتهم، ولا يستطيعون الحياة من دونها.. يكررون المقولات و«الأفيشيات» نفسها، دون إضافة أي جديد.. البعض يقترب من الثمانين - أو أكثر - ويرفضون النزول من على المسرح، و«لايشعرون بالتوقيت»، وليس لديهم إدراك أنهم يكررون أنفسهم.. طبعات متتالية والكلام لا يتغير.. ويزداد أسفي على هذه الظاهرة، حين يفقد البعض «إنسانيته» طالما هو على المسرح، تتعاضم قدرات هؤلاء - مع تزايد المال والشهرة - لاستغلال الآخرين لتحقيق مصالحهم، ثم «ينهون مدة صلاحيتهم» بقرار منهم.. ليست لديهم رحمة في احترام كرامة البشر من الضعفاء، تختفي لديهم سمة التواضع، وإذا برزت في أحيان قليلة، تكون «للتجميل».

إزاء هؤلاء أشعر بالشفقة عليهم، فهم يملكون كل شيء إلا المبادئ والمشاعر الإنسانية، وفي اعتقادي أنه لم يخطر على بالهم مرة واحدة أن الحياة تنتهي في أقل من لحظة، وأن ما يبقى هو العمل الطيب والحب.. وإزاء تزايد عدد ونوعية هذه النجوم الزائفة، أصبح لدى ما أسميه «حاسة الاستشعار عن بعد»، وهي الحاسة التي تقول لك: لا تقترب، واحتفظ بمساحة بينك وبينهم.. هذا إن كنت تعتقد أنك مختلف عنهم.

## «التوازن .. واستعادة التوازن»

أحياناً كنت أشعر بالضغط النفسي، وتزايد المهام التي ينبغي أن أقوم بها، حتى وقع تحت يديّ كتاب صغير ساعدني بالفعل على إدارة حياتي اليومية، وفي مواجهة الضغوط المتنوعة ما بين العمل والحياة الشخصية، كان عنوانه «المبادئ التسعة لحياة متوازنة» صدر عام ٢٠٠٦ وتمت ترجمته ونشره بالعربية فيما بعد.. إن هذا العمل الذي كتبه «د. وأين داير» كان يرصد التناقض بين التوازن الذي يتسم به الكوكب الطبيعي الذي نعيش فيه، وبين عدم التوازن في حياة البشر.. والأهم إنه كان يسعى لأن يستعيد كل إنسان توازنه، من خلال التحكم الواعي فيما نفكر فيه وما نرغب في القيام به.

ومن أهم ما تعلمته واستفدت به من هذا الكتاب، أن تواجد كثير من المهام والأعمال في حياتي اليومية، مهما كانت إيجابية وتتوافر لي القدرة على عملها، فإنها تحول - وفقاً لرأي الكاتب - «دون توازن ميزان سلوكياتنا اليومية حتى وإن اعتقدنا أن راحتنا في ذلك».. **وحين يحدث الخلل في الميزان علينا أن نعلم أننا قسوناً على أنفسنا، وعلينا أن نتبنى «أدوات تساعدنا على إعادة التوازن»..** هذا الكتاب بتفاصيله، أقنعني أن عدم التوازن هذا هو مسئوليتي الشخصية، وأن ما أشعر به من ضغوط هو أمر ناتج عن الاختلال بين ما أطمح في تحقيقه من جانب والوقت المتاح لي والقدرات من جانب آخر.. **هذا الكتاب علمني أن أحب ذاتي ككائن وأن أشفق على نفسي من تحمل ضغوط ومهام كثيرة ومتنوعة - وكلها تبدو من وجهة نظري على نفس مستوى الأولوية - وفي هذه الحالة وفقاً لنصيحة كتاب المبادئ التسعة لحياة متوازنة، «لنسال أنفسنا ما الفائدة من العيش في**

حياة تفتقر لعدم التوازن».. ليس كل ما أقوم به «بالغ الأهمية» - كما كنت أعتقد - ومن ثم بدأت أقدر ممارسة رياضة المشي مثلاً، والتنزه، والتأمل، وبدأت أعدل سلوكياتي وأهتم بأوقات فراغي.. بعبارة أخرى الموازنة بين الاستمتاع بالحياة وبين الوفاء بمتطلبات العمل، والموازنة بين ما أخطط له وأحلم به، وبين محددات الوقت والواقع.

أصبح يشغلني بعد قراءة هذا الكتاب، تحقيق الهدوء النفسي، والذي يعبر عنه هذا العمل بأنه «شمعة مضيئة» داخل ذاتك الهادئة، التي تشعرنا بالأمن والتوازن.. إن التأمل في الطبيعة من حولنا ثم توسيع نطاق الحب والهدوء ليشمل الناس جميعاً، أو كل من حولنا، هو أمر يستحق الاهتمام بدلاً من الصراع والمنافسة على صغائر الأمور.

إن هذا الكتاب علمني الكثير عن التوازن ثم استعادة هذا التوازن، وكان من أهم ما دفعني لتعديل جانب من سلوكياتي فكرة «إستحالة بناء حياة كاملة تستند على مبدأ إرضاء الآخرين»، يكفي بناء الثقة بينك وبينهم مهما كانت الاختلافات والفروق.. مهم أن تكون نفسك أمام الجميع ولا تكون من يفضلونه هم، فتفقد توازنك وهدوءك النفسي مرات ومرات.. وفي اعتقادي أن الخيار الأهم في الحياة أن تكون نفسك، أن تكون حقيقي.

## سهرة نسائية في إحدى دول الخليج العربي

قد أكون غير مبالغة إذا قلت، إن هذه السهرة كانت من أجمل ليالي حياتي، فقد استمتعت بها للغاية، وأحببت واحترمت النساء الخليجيات اللاتي شاركن فيها، ومنذ هذه الليلة تغيرت أفكار كثيرة نمطية كانت لدي عن نساء الخليج.

تطلب مهام عملي السفر كثيراً إلى كل دول الخليج العربي، خاصة في بداية مسئولياتي لإدارة الشبكة العربية للمنظمات الأهلية، في التسعينيات من القرن العشرين.. كنت على إمام دقيق بالأحوال الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بمجموعة الدول هذه، وأدرك الفوارق بينها خاصة فيما تعلق بالحقوق والحريات، ومكانة المرأة والرجل، والفجوات بين الجنسين.. إلا أن الاقتراب من المشهد والتعايش معه قد كشف عن الكثير.

زميلة وصديقة سعودية، مثقفة ومستنيرة، دعنتني إلى «سهرة نسائية» للعشاء في بيتها، ضمت ما يقرب من ١٨ امرأة، من أعمار متفاوتة، متزوجات وغير متزوجات، ولفت نظري في البداية المستوى المرتفع من الأناقة (بالطبع من دون عبااء ومن دون غطاء للرأس).. وحين بدأنا معاً في التواصل تعرفت على كل امرأة عن قرب، كان منهن أستاذة الجامعة والطبيبة وربة البيت وقيادات لجمعيات أهلية نسائية، وإخصائيات اجتماعيات.. وفنانات وأديبات .. وغير ذلك.

بدا مستوى الوعي الحقوقي مرتفعاً للغاية، وصاحبه رغبة قوية من جانب هذه المجموعة النسائية، للتحرر من قيود كثيرة، وكان حديثهن عن «الأمل في قيادة السيارات»، باعتباره يتساوى مع حق المرأة في «قيادة حياتها».. تحدثنا عن الحب والزواج بكل حرية، وحكى البعض عن قصص حب لهن، البعض منها انتهى بالزواج بينما أخفق البعض الآخر.



أكثر ما شدني من مناقشات في هذه الليلة، حديث البعض عن الفجوة الثقافية بين الرجل والمرأة، وصعوبات التواصل، التي دفعت نسبة عالية من النساء في المملكة، إلى اتخاذ قرار العزوف عن الزواج (وهو ما نطلق عليه العنوسة الاختيارية).. إن هذه الظاهرة تسارعت كثيراً في السنوات الأخيرة، وارتفعت نسبتها إلى جانب ارتفاع نسبة الطلاق ليصل هذه اللحظة إلى حوالي ٤٠٪.. وبدأت المناقشات الجادة لها في المؤتمرات والمنتديات والمحافل، مع تدفق المعلومات للمرة الأولى عن النسب السائدة للطلاق والعنوسة في مجموعة دول الخليج العربي. امرأة فنانة جميلة، في حوالي الأربعين من عمرها، من صاحبات الأعمال، تحدثت عن المثل المصري «ضل راجل ولا ضل حيط»، وقالت إن «ضل الحيط» كان أفضل كثيراً لها.. تضحك وتقول «ضل الحيط أستند عليه ولن يعوق نجاحي ولن يقضي على آمالي.. ضل الحيط ساعدني أن أكون مصممة أزياء (أبدعت في تصميم وإنتاج عباة للنساء)، «بينما الرجل الذي تزوجته كان يتحدث من اليوم الأول لزواجي عن المرأة التي خلقت من ضلع أعوج وعليه أن يقومه».. تفهمت تماماً الفجوة الثقافية بين الرجل والمرأة في «بلاد منغلقة»، وتفهمت نضج النساء المتعلمات، حين يكون الاختيار هو العنوسة.

وفي نهاية هذه السهرة استمتعنا بصوت جميل ينشد أغاني السيدة أم كلثوم، وإلي امرأة أخرى تعزف على العود، ويتمايل الجميع مع الموسيقى والغناء ويستمتعن بالحرية حتي داخل أسوار المنزل.

ويعد أكثر من ١٥ عاماً، شاركت في مؤتمر عقد في سلطنة عُمان (أغسطس ٢٠١٦) كان موضوعه «القيم ومخاطر التفكك الأسري»، أدهشني مشاركة النساء من كل دول الخليج العربي، في مناقشات صريحة للإجابة عن السؤال لماذا ارتفعت نسب الطلاق في هذه المجتمعات (وغيرها في المجتمعات العربية)؟ وتلخصت الإجابة في مسئولية الثقافة المهيمنة، وتسلب الذكور، وإلغاء مساحات الحرية والحوار مع النساء.. لقد تغيرت النساء، ويطرحن أفكارهن بكل حرية.

## «إعلان سقوط مبدأ الأمانة العلمية»

غالبية جيلي ، وأنا ، تعلمنا مبدأ احترام الأمانة العلمية، هو مكون رئيسي في منظومة القيم التي تربينا عليها، وهو معيار لاحترام الباحث، ومعيار لتقييمه وأسهم أساتذتنا الأجلاء المحترمون، في حراسة ورعاية هذا المبدأ، وأبسط مظاهره الإشارة الدقيقة لمصادر المعلومات التي تعتمد عليها.. ولكن مع التغيرات القيمية، وما صاحبها من تغيرات اقتصادية واجتماعية، أصبح منهج «النهج السريع» و«الكسب السريع» - حتي في سياق البحث العلمي - هو السائد .. وبالطبع ارتبط به غياب الإبداع والابتكار وغياب التراكم العلمي، حين يتوقف الباحث عن بذل أي مجهود أو تفكير، يرتقي به ويعمله، ويطور من الأدبيات.

هي ظاهرة بدت مستترة، ثم أعلنت عن نفسها بكل وضوح سواء في الرسائل العلمية بالجامعات، أو في المراكز البحثية والإصدارات العلمية، وبدت الكارثة في رأيي، في «إغماض عيون» الأساتذة المشرفين، والاستمرار من جانب هؤلاء في «مسيرة جماعية» نحو الهاوية.

لا يوجد منا - نحن الجماعة الأكاديمية - من ينكر هذا الواقع المخزي، ولكن هناك من «يغض النظر عنه»، وهناك من «يتستر عليه» إما لحماية اسمه الشخصي إذا كان هو الأستاذ المشرف، أو لحماية اسم الكلية والجامعة.. ثم وصلت الحال بالباحث المحترم، الذي يتم سرقة أعماله، ومع شيوع هذه الظاهرة، إلى أن يستسلم للواقع المرير.

أتذكر في هذا السياق أحد المواقف التي تعرضت لها، وبشكل سافر، وذلك حين اتصل بي الزميل الصديق د. أسامة الغزالي ، منذ عدة سنوات، وكنا في شهر رمضان الكريم، ليقول لي إنه يراجع رسالة دكتوراه لشاب باحث، استعداداً

لناقشتها عصر ذلك اليوم.. كان موضوع رسالته عن الجمعيات الأهلية في مصر، وأدرك وهو يقرأ صفحات هذا العمل - إنه سبق له أن قرأ هذا الكلام من قبل.. المهم أنه عاد إلى أحد إصداراتي، فوجد أن هذا الباحث «المحترم» سرق ٣٥ صفحة بالكامل من كتابي، والأدهى أنه لم يشر للمصدر.. سألني ماذا أفعل؟ قلت بعد أن علمت أن المشرف على الرسالة أستاذ فاضل، في إحدى كليات القمة (كما يقولون) إنني سوف أتصل بهذا الأستاذ وأنت الشاهد الوحيد.. وافق د. أسامة، واتصلت من جانبي بالمشرف - وكان ذلك في صباح اليوم ذاته الذي تناقش فيه رسالة الدكتوراه - وتحديث معه بشكل مباشر عن الواقعة، وطلبت منه إلغاء المناقشة، وإلا سوف أُلجأ للقضاء واحتكم إلي الرأي العام.. أعتذر الأستاذ بسرعة، وأشار إلي أن زميلة له (مشرف مساعد) كانت هي المسئولة.. انتهت هذه الواقعة بهدوء، وتم اتخاذ إجراءات سريعة، لتأجيل المناقشة ٦ شهور لتدارك هذا الأمر.. هذا الباحث بعد أن ناقش رسالته، وبعد هذه الواقعة، حتى اللحظة الحالية (مرور ١٠ سنوات) لم يكتب كلمة واحدة، ولا أحد يعلم أين يعمل أو ماذا يفعل.

## «زيارة إلى البرازيل.. وصدمة أطفال الشوارع»

قبل انعقاد المؤتمر العالمي للسكان والتنمية في مصر عام ١٩٩٤، تشكلت لجنة تحضيرية للإعداد لمنتدى المنظمات غير الحكومية، والموازي لاجتماع الحكومات.. فقد تشرفت بوجودي ضمن أعضاء هذه اللجنة، مع شخصيات مصرية محترمة، منهم السيدة عزيزة حسين رحمها الله، وقد تحركت اللجنة في كل أنحاء مصر ومختلف المحافظات، للتوعية بأهمية المؤتمر ومحاوره واختيار الجمعيات المصرية المشاركة في المؤتمر.. وبالفعل قام فريق العمل بجهود مخصصة وعظيمة، تتناسب مع انعقاد مؤتمر عالمي للأمم المتحدة في مصر.

وقبل عدة شهور من انعقاد المؤتمر، كان علينا نحن اللجنة التحضيرية السفر إلى البرازيل، حيث يتم عقد اجتماع تمهيدي مع ممثلي المنظمات غير الحكومية في مختلف مناطق العالم، وممثلي منظمة الأمم المتحدة.. وفي رحلة شاقة وطويلة من القاهرة إلى نيويورك، ثم من الأخيرة إلى ريو دي جانيرو، وصلنا إلى الفندق، ليجد كل منا قائمة بالتحذيرات قد تدفعك للعودة إلى بلدك مرة أخرى، كانت هذه القائمة تحذر من السرقات، وخطف الحقائب، أو التعرض لأسلحة، وتحذر من أطفال الشوارع والمخاطر التي تتعرض لها.. في هذه اللحظة الزمنية عام ١٩٩٤، كان العالم كله يعرف هذه الظاهرة المنتشرة في البرازيل بشكل واسع للغاية، ويعرف وجود «تشكيلات من الشباب»، تنزل إلى الشوارع ليلاً وحين تشرق الشمس ترى مئات من القتلى.. وأثير جدل واسع حول هوية هؤلاء، وحول الطرق الوحشية التي يتم التعامل فيها مع الأطفال، وكذلك حول مدى شرعية وجود منظمات دولية في أوروبا وأمريكا، تقوم بتهريب أطفال منهم والحصول على المال، أو انخراطهم في تجارة البشر.



لقد كان من الصعب أن نظل في الفندق، على ساحة البحر، دون أن نخرج، ومن ثم اتفقت وآخرون بعد نهاية يوم عمل، أن نخرج للتمتع «بنسيم البحر» دون أن يكون معنا - وفي أيدينا - حقيبة أو مال أو ذهب أو أي شيء يغري الأطفال بالاعتداء علينا..

وكانت الصدمة على شاطئ البحر .. عشرات وعشرات من الأطفال معاً، تتراوح أعمارهم بين ثلاث سنوات وحوالي خمس عشرة سنة، يسيرون معاً في مجموعات، ويتصايحون، ويطلبون الطعام أو المساعدة.. بعضهم شبه عراة، وفتيات صغيرات جداً يحملن أطفالهن ويرضعن وأخريات في أواخر شهور الحمل، ولن أنسى أبداً طفلة قد تكون ١٢ عاماً أو أكثر قليلاً لكنها ترضع وليدها .. كانت الصدمة المختلطة بالحزن كبيرة، وفضلنا العودة فوراً إلي الفندق، حيث كانت حفلة العشاء الرسمية للوفود، واحتفال راقص جميل من مجموعة من أجمل نساء العالم.. ما كل هذا التناقض ما بين أطفال الشوارع على شاطئ البحر - وعلى

بعد خطوات - وبين ما يحدث في الفندق، من اجتماعات ومناقشات النخبة، ثم عشاء رسمي ووفود من كل أنحاء العالم.. إنه تناقض يثير الغضب، وخصوصاً أن الأطفال والفتيات والنساء، أحد المحاور الأساسية في مؤتمر السكان والتنمية، والذي كنا نخطط له في القاهرة ١٩٩٤.

ومضت السنوات، والذاكرة تحتفظ بصورة أطفال الشوارع، ويغذيها وينعشها تصاعد ظاهرة أطفال الشوارع في القاهرة، والتي امتدت من الذكور إلى الإناث، ونكاد لا نلمح حولاً شاملة لها تتعامل مع مصادر الظاهرة.

في عام ٢٠١٠، كنت أمشي بحرية تامة على شاطئ البحر في عاصمة البرازيل، وأكاد لا ألمح من نطلق عليهم أبناء الشوارع.. الفارق بين زيارتي لهذا البلد الجميل عام ١٩٩٤ ثم عام ٢٠١٠، يكشف عن مدى وعمق التوجه التنموي؛ حيث كان التركيز على مؤسسات شاملة للتعامل مع الظاهرة، وبناء تعليمي أقوى وأرقى، وجهود لمكافحة الفقر.. دولة تلحق بقطار الأقوياء.

بينما نحن في مصر، نتعامل مع ظاهرة تتعاضم، ولكن بشكل أمني، أو من خلال عدة مؤسسات لرعاية أطفال الشوارع، تشتت جهودها، ويصعب أن نعرف ما انعكاساتها.. هناك فارق ضخم بين التعامل مع أسباب الظاهرة، أو التركيز على الحد من نتائجها.

## «تعلم كيف تنسى .. وتعلم كيف تمحو»

فعلاً هو أمر صعب للغاية، أن تنسي لحظة وداع إنسان قريب وعزيز عليك، وأن تنسي طعنة صديق، أو هجر الحبيب، ولهذا قال شاعرنا العظيم «إبراهيم ناجي» في قصيدته التي تغنت بها السيدة أم كلثوم، ولحنها رياض السنباطي، «فتعلم كيف تنسى وتعلم كيف تمحو».. هي عملية تعلم تستغرق فترة طويلة من العمر، وتراكم خبرات، وعملية تصالح ذاتي مع النفس، تتسم بالتعقل والمصارحة.. وحينئذ سوف نتعلم كيف «نقلب الصفحة» ونفتح «صفحة جديدة»، ويدفعنا الأمل إلى أن نتطلع إلى المستقبل، ونقتنع أنه سيكون الأفضل، ومع كل عام جديد، سنتأكد إننا تعلمنا كيف ننسى الآلام، وكيف نمحو الإساءات.

الوداع هو الأصعب والأقسى، وحين توفيت أمي - رحمة الله عليها، - وبعد رحلة آلام، شاركتها فيها، اعتقدت أنني أموت معها وأموت بعد رحيلها، ولا يمكن أن أشهد الفرحة مرة أخرى.. صحيح خاضت الحياة عدة شهور، وهربت الآمال مني، وهرب أصدقاء لي لا يحبون الألم والدموع، ولكن الصحيح أيضاً أن الفرحة عرفت طريقها إليّ، وانشغلت بالعمل والحب والزواج.. راحت الآلام وبقيت أمي في قلبي.. وداع ياسر ابن شقيقتي، وابني الحبيب في عمر العشرين، وذلك مطلع الألفية الثالثة، بدا لي أكثر قسوة وصعوبة، فهو قطعة من قلبي، وأنا أمه الثانية.. إلا أن اكتساب القوة للمواجهة كان ضرورياً، لكي يمكنني مساندة أمه، شقيقتي الحبيبة، أحاول أن أثبت فيها الثبات والقدرة على الاستمرار، وما أقسى وأصعب من أن توارى الأم ابنها تحت التراب.

وداع الزوج الصديق والحبيب، علمني الآلام من نوع آخر، علمني الوحدة التامة، علمني الصمت، علمني غياب الكلمة الحلوة، وغياب الحنين والسند. واكتسبت قوة

أكبر والحمد لله، وأدركت بسرعة أنه مهما أحاطني الأصدقاء بالحب والمساندة، فإن كلُّ ينفُض إلى حياته، وأن مهمتي الصعبة هي «الوقوف وحدي»، وبسرعة.. وكان الانشغال بالعمل هو الطريق.. أحببت وحدتي، وتعلمت كيف أعيش وحدي، وكيف أستمر في الحياة راضية وسعيدة، فالقلب مازال ينبض، وما زال يحب الحب ويحب الحياة.. وكثيراً ما أقوي نفسي، وأقول: «تعلم كيف تنسى وتعلم كيف تمحو؟، وما أصعب ذلك.

